كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

من وجوه التناسب
في
سورة النصر

إعداد

د / رضا السعيد فايد سليمان زايد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد
بكلية اللغة العربية بإيتاي البارود

(العدد التاسع والثلاثون)
(الإصدار الأول ـ الجزء الثاني)
(١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م)

من وجوه التناسب في سورة النصر .

اسم الباحث : د / رضا السعيد فايد .
قسم البلاغة والنقد – كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر – إيتاي البارود – مصر.
البريد الإلكتروني : redazayed.419@azhar.edu.eg

الملخص :
هذا البحث يبحث في وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، أردت من خلاله بيان لحمة التناسب الجامعة بين هذه السورة الكريمة وغيرها من السور، في السياقين النزولي والمصحفي مع بيان التناسب الداخلي الجامع بين جمل السورة وآياتها، خاصة أن التناسب يعين على تدبر القرآن الكريم وفهمه فهما منضبطا من خلال سياق الآيات ومقاصد السور،وأهدافها، وصلتها بالسياق القرآني العام ٠
الكلمات المفتاحية : القرآن الكريم، التناسب ،السياق ، سورة النصر .

Of proportionality in the Sura Al-Nasr

Reda Al-Saeed Fayed

Department of rhetoric and criticis , College Arabic language, Azhar university - Itay – Al- barood, Egypt .

Email : : redazayed.419@azhar.edu.eg

Abstract :

This research is looking at one of the aspects of the miracle of the Holy Qur'an, through which I wanted to demonstrate the proportion between this The Holy Surah and other suras, in the Nizole and Holy Koran along with a statement of the overall internal proportion between the sentences and verses of the surah, especially since proportionality helps to manage and understand the Holy Qur'an Disciplined through the context of the verses and the purposes of the fence, its goals, and its connection to the general Quranic context.

Keywords **:The Holy Koran, the proportion, the context, Sura Al-Nasr**

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾

(سورة النصر من ١ : ٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الذي نصر عبده بالمعجزات الباهرة ، والحجج القاهرة ، وأجلها وأبقاها القرآن الكريم ، الروح والنور والبيان المبين والصلاة والسلام الدائمان الطاهران على سيدي ومولاي رسول الله محمد بن عبدالله الهادي البشير ، والسراج المنير من عبد ربه حتى آتاه الله اليقين ، فاللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، اللهم آمين.

وبعد :

فإن القرآن الكريم كتاب الله المبارك :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿٩٢﴾ ﴾ الأنعام ٩٢

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ الأنبياء ٥٠

ولا يستطيع أحد أن يعدد أو يحصر بركات هذا الكتاب العظيم ؛ لأن عطاءه الإلهي الممدود ، غير محدود بزمان ولا مكان ولا علم من العلوم ، فهو كتاب كل الأزمنة والأمكنة والعلوم ، هو كتاب الله- عزوجل – الذي جعله الله تبياناً لكل شيء ، فيه معرفة الله –عز وجل- وفيه أخبار وقصص السابقين ، فيه التكاليف والأوامر الإلهية ، فيه مصالح البلاد والعباد ، فيه البعث والحساب ، والجنة والنار ، فيه أسرار الكون ، وأسرار النفس ، فيه الهدى والرحمة ، فيه العدل والإنصاف والفضل ، فيه العزة والكرامة ، فيه الحياة والنور وصلاح هذا الكون

وكل هذا وغيره ، جاء في لفظ مشرق وأسلوب محكم ، ونظم مبدع ، وانسجام تام وتناسب قوي متين يسري في كل سور وآيات القرآن الكريم حتى بدا القرآن الكريم من الفاتحة إلى الناس فى حكم الكلمة الواحدة ؛ فلا تملك مع كل هذا الجمال والإبداع إلا أن تؤمن عن يقين بإعجاز القرآن الكريم وأنه كلام الله – عزوجل– المنزل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

ومن بركات القرآن الكريم الإعجازية أنه لا تنقضي عجائبه ولا تقل عطاءاته ونفحاته وكراماته ؛ فمهما توجه له الدارسون على اختلاف أزمانهم ومشاربهم بالبحث والدراسة ، فإن القرآن الكريم سيظل له أسراره ، ونفائس إعجازه التي لا حدود لها ؛ لذلك أردت الاقتراب من سورة النصر ، هذا النصر الذي تحتاجه الأمة بعد ردح من الانكسارات والهزائم – أبين من خلالها وجهًا عظيمًا من وجوه إعجاز القرآن الكريم ؛ فكان هذا البحث :

"من وجوه التناسب في سورة النصر"

أردت من خلاله بيان التناسب الداخلي الجامع بين جمل السورة وآياتها وبيان لحمة التناسب الجامعة بين هذه السورة وغيرها من السور في السياقين النزولي والمصحفي ، خاصة أن التناسب يعين على تدبر القرآن الكريم وفهمه فهمًا منضبطًا من خلال سياق الآيات ومقاصد السور وأهدافها ، وصلتها بالسياق القرآني العام .

وتثوير هذا الجانب الإعجازي للقرآن الكريم فيه رد مكين على شبهة طالما أثارها بعض المستشرقين وأعداء الإسلام ، فقد زعموا أن آيات القرآن الكريم وسوره ، لا يجمعها سياق وليس بينها وفاق وأوصوا بإعادة ترتيب القرآن الكريم وفق السياق التاريخي للنزول ، وذكر بعضهم بأن القرآن فيه نقص واضطراب ؛ لأنه لم يجمع في عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – وآخرون يزعمون بأن

من جمع القرآن من الصحابة قد زاد فيه [1] وكل ذلك حمق بيِّن وجهل مطبق ، ومن هنا تبرز أهمية بيان التناسب القرآني ؛ إذ فيه رد مكين على هؤلاء الحقدة والمزيفين ، فمن خلال التناسب يتبين دقة وانسجام كافة مستويات الأداء القرآنى الكريم : الآية والآيات ، والسورة ، والسور كلها بعضها مع بعض ، ولذلك قــرر الشيخ سعيد حوى ــ أن الكلام فى هذا الموضوع (التناسب) أصبح من فــروض العصر الذى نحن فيه [2]

وقد جاء هذا البحث في مقدمة بينت فيها أهمية البحث وعملي فيه ، وتمهيد ذكرت فيه معنى التناسب وفائدته وأهم مصنفاته ، وفصلين :

الفصل الأول : التناسب في سياق السورة الداخلي وفيه تمهيد وعدة مباحث :

التمهيد وفيه : **أولًا** : ما هي السورة

ثانياً : بين يدي السورة .

المبحث الأول : التناسب بين أسماء السورة ومضمونها.

المبحث الثاني :.التناسب بين مطلع السورة ومعناها ومقصودها .

المبحث الثالث : التناسب بين المطلع والخاتمة .

المبحث الرابع : التناسب في ألفاظ السورة وجملها .

---

(١) ينظر فى هذه الافتراءات : آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره د/عمر إبراهيم ج٢ ص ٤٩٢ وما بعدها ٠دار طيبة للنشر٠ الرياض٠ والسيرة النبوية وأوهام المستشرقين أ/ عبد المتعال الجابرى ص ٢٧ وما بعدها نشر مكتبة وهبة ٠ بدون والقرآن نزولــه تدوينــه، ترجمته وتأثيره بلاشير ص٣٣ ، ترجمة رضا سعادة٠ دار الكتاب اللبناني بيــروت ٠ ط أولى ١٩٧٤م ٠

(٢) الأســاس فــى التفسيــر٠ الشيــخ سعــــد حــوى ج١ ص ٩ ٠ دار السلام٠ ط السادسة ١٤٢٤هــ / ٢٠٠٣م ٠

الفصل الثاني : التناسب في سياق السورة الخارجي، وفيه تمهيد وعدة مباحث :

التمهيد : ترتيب السور بين التوقيف والاجتهاد.

المبحث الأول : تناسب السورة في سياقها المصحفي .

المبحث الثاني : . تناسب السورة في سياقها القرآني العام .

المبحث الثالث : تناسب السورة في سياقها النزولي .

الخاتمة : وذكرت فيها أهم النتائج .وثبت بالمراجع وفهرس الموضوعات .

والله أسأل القبول والسداد والعفو والعافية ، اللهم آمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

التمهيد

التناسب : مفهوماً وفائدة وتصنيفاً :

لن أطيل النفس في هذا التمهيد ، وإنما هي إشارات تمهد لهذه الدراسة ؛ خاصة مع كثرة الدراسات والرسائل العلمية التي بينت أصول هذا العلم .

فالتناسب في اللغة : التشابه والتقارب ، قال ابن فارس : (النون ، والسين ، والباء ، كلمة واحدة ، قياسها اتصال شيئ بشيئ ، ومنه النسب ، سمي لاتصاله ، وللاتصال به تقول : نسبت أنسب . وهو نسيب فلان. والنسيب : الطريق المستقيم ، لاتصال بعضه من بعض)[1] وفي اللسان : النسب القرابة ، والنسب يكون بالآباء ، ويكون إلى البلاد ، ويكون في الصناعة [2] فأصل المادة يدل على الترابط والاتصال والاعتلاق بسبب من الأسباب ، وهذا المعنى قريب من الدلالة الاصطلاحية فالتناسب القرآني هو "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني " [3] أو كما يقول البقاعي : (علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه)[4] أي أجزاء القرآن الكريم .

---

(١) معجم مقاييس اللغة ا بن فارس ج٥ ص ٤٢٤ ت. أ / عبد السلام محمد هارون دار الفكر ط . ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) ينظر : لسان العرب مادة (نسب) . دار صادر . بيروت .

(٣) الإتقان في علوم القرآن . السيوطي . ج ٣ ص ٣٦٩ . ت . أ / محمد أبو الفضل إبراهيم .الهيئة المصرية العامة للكتاب. ط ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م .

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور . البقاعي . ج١ ص ٦ . دار الكتاب الإسلامي ط : ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

ولما كان ترتيب الآيات توقيفيًا، وكذلك ترتيب السور على الرأي الراجح [1] فإن النصح لكتاب الله عزوجل يقتضي تلمس الصلات والمناسبات بين هذه الآيات والسور ؛ فإذا كان لب البلاغة هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فإن معرفة التناسب على كافة مستويات الأداء القرآني هو عين البلاغة ، فكتاب الله كما هو معجز في لفظه وجمله ونظمه هو معجز في ترتيب آياته وسوره ، وهذا هو محصلة القول بالتوقيف ؛ إذ إن العين لا تخطيء في كل خلق الله – عز وجل – انسجامًا وتلاؤمًا وإبداعًا فجسم الإنسان على كثرة الأعضاء واختلاف الوظائف ، تام البنيان ، متسق الهيئة ، منسجم الحركات ، وكذلك هذا الكون المنظور الشاسع الممتد يسير وفق تدبير إلهي محكم في اتساق وانسجام ، بل إن العالم الحاذق عندما يؤلف كتابًا يبنيه على فصول وأبواب يرتبط بعضها ببعض ويسلم أولها إلى آخرها ، فإذا كان هذا هو الحال مع خلق الله –عز وجل– ومع كتب البشر فكيف بكتاب الله –عز وجل– الذي تقدست أسماؤه وجل عن النقائص وحاز كل أوصاف الكمال ؟! فهذا الكتاب المعجز على كثرة موضوعاته وقصصه وأغراضه ، بمكيه ومدنيه ، بترغيبه وترهيبه ، بناسخه ومنسوخه في غاية التناسب ، آخذ بعضه برقاب بعض ، فلا يحس صاحب الفطرة السليمة ، وهو يقرأ القرآن الكريم بنبوٍّ ولا فتور ولا تشتت ولا تباعد ، بل هو التناسب والتلاحم وقوة الاعتلاق ، كأنما أفرغ إفراغًا واحدًا وسبك سبكًا واحدًا ، وإذا كان الإمام عبدالقاهر قد جعل اتحاد أجزاء الكلام ودخول بعضها في بعض وارتباط ثان منها بأول من أدق وجوه النظم

(١) ينظر : أسرار ترتيب القرآن . السيوطي ص ٤١ وما بعدها . دار الفضيلة . بدون ومناهل العرفان في علوم القرآن الشيخ /محمد عبد العظيم الزُّرْقاني . ج ١ ص ٣٤٦ وما بعدها مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه . الطبعة الثالثة .

الذي يتحد في الوضع، ويدق فيه الصنع [١] فإن هذا الوصف الخاص بأجزاء الكلام ينطبق بالكلية على كل مستويات الأداء القرآني ، فالتناسب ما هو إلا نظرية النظم لكن بمفهوم أوسع ونظر أشمل ، وأستطيع القول مطمئنًا أن المفسرين الذين اهتموا بالتناسب كالرازي وعلماء علوم القرآن الكريم ، استقوا كافة أوجه تناسب الأداء القرآني ، من خلال قراءتهم التدبرية للقرآن الكريم بعيون نظرية النظم الجرجانية .

فالتناسب بضاعة البلاغيين ردت إليهم ، والكشف عن هذا التناسب يعين على حسن تدبر القرآن الكريم ؛ لأن التناسب ينبع من منهجية تأويل شاملة لكافة السياقات والعطاءات القرآنية مما يجعل التناسب أمرًا رئيسًا في طريق الوصول إلى فقه النظم القرآني ، وقد بين الشيخ عبدالعزيز جاويش –رحمه الله– خطورة تأويل النص القرآني بعيدًا عن النظر إلى المناسبات وعلائق الارتباط بين الآيات فيقول : (قد يغفل المفسر عما بين آيات القرآن من الارتباط ، والتناسب ، وما قد يفيد بعضها بعضًا من البيان ، أو التقييد ، فيأخذها بالتأويل ، مفككة العرى ، مبددة النظم ، حتى إذا استعصى عليه أمرها ، ونبا عقله عن فهمها ، لا يزال يركب في تأويلها صعاب المراكب ، ويلتمس بلوغ معانيها بتسنم الجبال ، وقطع السباسب ، وقلما سلمت أقدامهم من العثار ، أو استطاعوا إبراز ما فيها من الآثار). [٢]

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز . الشيخ عبدالقاهر الجرجاني ص ٩٣ت . الشيخ / محمود محمد شاكر أبو فهر مطبعة المدني بالقاهرة ط الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م

(٢) تفسير أسرار القرآن . الشيخ / عبدالعزيز جاويش . ص ١١٧مطبعة الهداية الإسلامية ، الآستانة . ط ١٣٣١هـ .

وإدراك هذه المناسبات يعد مظهرًا من مظاهر الإعجاز القرآني ، يزيد المؤمنين إيمانًا ، يقول البقاعي : (وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب ، ويتمكن من اللب ؛ وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين : أحدهما نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب ، والثاني نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب) [1] والغرض من تلاوة القرآن الكريم هو زيادة الإيمان قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾ الأنفال:٢ فتلاوة القرآن الكريم تعمق الإيمان وتجعله ينساب في حنايا القلب ، ولذلك فأي منهج يبتعد بالنص القرآني عن هذه الروح فهو منهج مرفوض ، وهؤلاء الذين ينادون بمناهج ونظريات نقدية اقتاتوها من فتات موائد الغرب ، إنما قصدوا إبعاد العقل عن مفاتيح فهم النص القرآني ، والنص النبوي وكافة منجزات العقل العربي ، مما يساهم ويعجل في طمس الهوية العربية الإسلامية وضياعها ، وهنا يكمن أهمية الحفاظ على المنهج الذي انبثق من محاضن لغتنا وثقافتنا والذي أسس له علماءونا ونفحوه – ومازالوا– من روحهم وعقولهم .

وكما أن عطاءات النظم القرآني لا حدود لها فكذلك عطاءات التناسب لا تزال تتكشف عن معان ودلائل غاية في الجمال والإعجاز ؛ لأن التناسب القرآني يدرج في كافة مستويات الأداء القرآني من اختيار اللفظ المناسب للسياق وتتابع الجمل وتآخيها ، وتكوين المقطع من السورة ، وتتابع القصص ، والأغراض ، والموضوعات ، داخل السورة الواحدة وعلاقة اسم السورة بمقاصدها ومعانيها ، وعلاقة المطلع بمقاصد السورة ، وعلاقته بالخاتمة ، وعلاقة السورة بما قبلها وما بعدها في السياق المصحفي ، وعلاقة السورة

(١) نظم الدرر ج ١ ص ١١ .

بالسياق القرآن العام ، وعلاقة السورة بالفاتحة (أم الكتاب) ، وعلاقة السورة بسورة البقرة، وعلاقة السورة بالسور المتماثلة المطلع، وعلاقة السورة بالسور في السياق النزولي إلى غير ذلك من وجوه التناسب والاعتلاق التي تظهر للقرآن الكريم إعجازًا فوق إعجازه .

وقد ظل هذا العلم مبثوثًا في كتب الإعجاز القرآني كالخطابي (ت ٣٨٨هـ) والباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) وعند بعض المفسرين كالإمام الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) والإمام الرازي (ت ٦٠٦هـ) الذي اعتمد عليه وأكثر منه ، وذكر أن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط (١) وأول مصنف خاص بالتناسب القرآني هو (البرهان في ترتيب سور القرآن) لابن الزبيرالغرناطي (ت ٧٠٨هـ) ونظم الدرر للبقاعي (ت ٨٨٥هـ) وله أيضًا (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور) وجاء السيوطى " ت ٩١١هـ " فصنف الكثير من الكتب التى تناولت التناسب بين الآيات على مستوى السورة الواحدة، وبين السور بعضها ببعض ، منها:" قطف الأزهار فى كشف الأسرار " ٠ ثم لخص من هذا الكتاب مناسبات السور خاصة ووضعها فى كتابه " تناسق الدرر فى تناسب السور وألف أيضًا :" مراصد المطالع فى تناسق المقاطع والمطالع "

واهتمت كتب علوم القرآن بالتنظير والتقعيد لهذا العلم وفى مقدمتها: "البرهان فى علوم القرآن" للزركشى " ت ٧٩٤هـ " و " الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى، وتناوله من المعاصرين الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى "ت ١٣٦٧هـ" فى كتابه " مناهل العرفان فى علوم القرآن" ، والشيخ الدكتور/ محمد عبد الله دراز " ت ١٣٧٧هـ "،فى كتابه" النبأ العظيم " ، وأقام شيخنا

(١) ينظر : مفاتيح الغيب . الرازي ج ٧ ص ٤٧٠ ت . خليل محي الدين . دار الفكر العربي . بيروت . ط ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م .

أبوموسى تحليله لبعض سور القرآن الكريم على بيان التناسب بين الجمل وأغراض السورة ومقاصدها والمعنى الأم الذي تقصد إليه السورة ، وعلاقة السور بعضها ببعض كما في تحليله – حفظه الله ورعاه– لسورة الأحزاب والحواميم، ويؤكد أستاذنا الدكتور / محمود توفيق على أن التدبر الأرحب لفقه المعنى القرآني يقتضي النظر في سياق السورة كلها ، يعمل فيها المتدبر بصيرته وفراسته البيانية ؛ فإن لكل سورة سياقًا يوحد نسب آياتها ، ويحقق الرحم القائم بينها ، ومراعاة ذلك السياق فيه البر برحم المعنى القرآني في السورة ، وفي نور السياق الممتد للسورة ، يتبين للمتدبر كثير من اللطائف ، بل يبين شيخنا الجليل أن دائرة التدبر القرآني تتعدى الجملة والآية والآيات والمعقد والسورة إلى السياق القرآني كله من مفتتح تلاوته (أم الكتاب) إلى مختتم التلاوة (سورة الناس) ، والمتدبر في تدبره في حركة متصاعدة بتصاعد المعنى القرآني ، وجميع هذه المعاني المتصاعدة المبثوثة في آيات القرآن الكريم ، من مفتتح سورة البقرة سنام القرآن الكريم ، إلى مختتم آيات سورة الناس ، هي تفصيل لما هو مجمل من المعاني في سورة الفاتحة (أم الكتاب) وكل معنى قرآني هو منسول من معاني سورة الفاتحة [1] فشيخنا يقيم فقه التدبر القرآني على وجود وحدة موضوعية وتناسب تام بين كافة سور القرآن الكريم وآياته ، ولأستاذنا الدكتور / إبراهيم الهدهد دراسة شافية ماتعة متخصصة، بيَن من خلالها وجوه التناسب بين مطلع السورة القرآنية ومقاصدها وأغراضها وموضوعاتها ، وذلك في كتابه علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم .

(١) ينظر : العزف على أنوار الذكر . د/ محمود توفيق سعد ص ١٥ ومابعدها . مكتبة وهبة ط ١٤٢٤هـ

وبالرغم من كثرة التناول لهذا العلم فإنه يظل دائماً محل نظر وتأمل ، يقول الطاهر : " وقد اهتممت فى تفسيرى هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال واهتممت أيضًا ببيان تناسب اتصال الآى بعضها ببعض وهو منزع جليل قد عنى به فخر الدين الرازى، وألف فيه برهان الدين البقاعى كتابه المسمى: " نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور " إلا أنهما لم يأتيا فى كثير من الآى بما فيه مقنع ، فلم تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلع" والبحث يتطلع إلى إظهاروجوه التناسب القرآني في سورة النصر على كافة المستويات، والعطاءات ، والله هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

الفصل الأول
التناسب في سياق السورة الداخلي

وفيه:

تمهيد :

أولا : ماهي السورة

ثانيا : بين يدي السورة.

المبحث الأول : التناسب بين أسماء السورة ومضمونها .

المبحث الثاني : التناسب بين مطلع السورة ومعناها ومقصدها.

المبحث الثالث : التناسب بين المطلع والخاتمة

المبحث الرابع : التناسب في ألفاظ السورة وجملها .

تمهيد

أولا : ما هي السورة ؟

السورة هي طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع. وهي مشتقة من سور المدينة ، شبهت به لإحاطتها بآياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور وهذا يتناسب مع ما في السورة من وضع كلمة بجانب كلمة وآية بجانب آية كالسور توضع كل لبنة فيه بجانب لبنة ويقام كل صف منه على صف ، وإما لما في السورة من معنى العلو والرفعة المعنوية الشبيهة بعلو السور ورفعته الحسية، وإما لأنها حصن وحماية لمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من كتاب الله القرآن ودين الحق الإسلام باعتبار أنها معجزة تخرس كل مكابر، ويحق الله بها الحق، ويبطل الباطل ولو كره المجرمون أشبه بسور المدينة، يحصنها، ويحميها غارة الأعداء وسطوة الأشقياء [1].أو من التسوّر، بمعنى التصاعد والتركيب، لعلوِّ شأنها وشأن قارئها ، والسورة –في اللغة أيضًا– تطلق على المنزلة الرفيعة، قال النابغة:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك حولها يتذبذب[2]

(١) ينظر : لسان العرب (سور) و تاج العروس من جواهر القاموس . الزَّبيدي ج ١٢ ص ١٠٢. دار الهداية . بدون و مناهل العرفان في علوم القرآن .الشيخ / محمد عبد العظيم الزُّرْقاني: ج١ ص ٣٥٠ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه . ط الطبعة الثالثة. دراسات في علوم القرآن: محمد بكر إسماعيل ص ٥٦ دار المنارط: الثانية ١٤١٩هـ–١٩٩٩م

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص ٢٨ ت.ا/عباس عبدالساتر . دار الكتب العلمية ط ٣ ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

فالسورة "قرآن يشتمل على آي ذي فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث آيات" [1]

ثانيا : بين يدي السورة :

سورة النصر هي سورة مدنية، بل هي من أواخر السور نزولًا ، وعدد آياتها ثلاث، وهذه السورة الكريمة تلخص رحلة كفاح هذه الدعوة المحمدية ، وتؤذن بتمام البلاغ والجهاد من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقد نصر الرسول – صلى الله عليه وسلم – وصحابته الكرام الله – عز وجل – في رسالته ودينه الخاتم، وأوذوا في سبيل ذلك ، وقاتلوا، وقتلوا، وتركوا الدور والأهل والأحباب ، و باعوا الدنيا، وأقبلوا على الآخرة، يرجون رضى ربهم ؛ ولذلك نصرهم الله، ومكن لهم ، فالنصر من الله – عزوجل– مرتبط بنصر الله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ ﴾ محمد: ٧

فالنصر والتمكين يجري وفق سنن إلهية آمن بها المسلمون الأوائل وطبقوها ، وأصبحت حياتهم تسير وفق منهج الله – عزوجل – فسادوا الدنيا وملكوها في أقل من قرن من الزمان ، وهذه السورة المؤذنة بكمال الدين وتمام الأمر ، تبين كيف يتعامل المسلم مع النصر والتمكين، فلا اعتراف إلا بفضل الله – عز وجل – وهكذا كان شأن النبي صلى الله عليه وسلم في كل انتصاراته يهضم نفسه أمام فضل الله – سبحانه – فإذا مَنَّ الله– عز وجل – على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالنصر، والتمكين ، وأعظمه وأتمه هو فتح مكة ، ذلكم الفتح الذي فتح الله به قلوب العباد للدخول في الإسلام فدخلوا فيه جماعات ، وصارت الوفود تسلم بين يدي النبي – صلى الله عليه وسلم – إذا حدث ذلك يا محمد ورأيته وعاينته فسبح ربك واحمده حمدًا يليق بكمال ربك ، ونزهه –

(١) أسماء سور القرآن الكريم وفضائلها . د/ منيرة الدوسري . ص ٧٧ . دار ابن الجوزي . ط أولى ١٤٢٦هـ.

سبحانه – عن كل ما لا يليق بجلاله ، وأثبت له كل ثناء مع حبه وتعظيمه ، واستغفر ربك يا محمد وداوم على ذلك ، استعدادًا للقاء ربك ؛ إِنَّهُ عز وجل- كانَ وما زال تَوَّاباً ، فإذا استغفره العبد تاب الله عليه .

والسورة الكريمة على وجازتها تحمل كثيرًا من المعاني والتوجيهات ، التي تعيد للأمة روحها ، وتبعث مجدها ، فهي منهج حياة يصلح حال المسلمين في الدنيا والآخرة ؛ ولذلك ورد أنها تعدل ربع القرآن الكريم ، فللبيهقي عن أنس – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: (قل يا أيها الكافرون) تعدل ربع القرآن ، و (إذا جاء نصر الله والفتح) تعدل ربع القرآن.[1] ولعل السر في ذلك: أنه لما كان مقصود القرآن بيان هذا الدين ، وبيان أحواله للمنزل عليه – صلى الله عليه وسلم – في أول الأمر، ثم في أثنائه، ثم في آخره عند تمامه، وموت المنزل عليه – صلى الله عليه وسلم – ، ثم بعد موته ، وكانت هذه السورة مبينة لحاله عند تمامه، فكانت ربعاً للقرآن بهذا الاعتبار.[2]

وقبل أن يلج البحث في بيان أوجه التناسب الداخلية يجب أن نكون على ذكر بأن كل ما في القرآن الكريم يرفرف عليه ظلال التناسب الندية ، فأصوات كلماته متناغمة والكلمات حبات لؤلؤ نضيد متناسقة تامة الحسن معطاءة مباركة بهية ، يترقرق في صفحتها ماء الحسن حتى بدت أصفى من ماء السماء ، وأرق من نسيم الصبا ، فلا تستطيع كلمة أن تحل مكان أخرى ، مهما كانت مترادفة، فالسياق لا يطلب إلا هذه الكلمة بهذه الهيئة والحروف والأصوات ، وهي مع

(١) شعب الإيمان أبو بكر البيهقي . ج٤ ص ١٣٨ ت . د/ عبد العلي عبد الحميد حامد .مكتبة الرشد .الرياض . ط الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م .

(٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور .البقاعي . ج٣ ص ٢٧٣. ت . د/عبدالسميع حسنين . مكتبة المعارف – الرياض ط الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧م.

تناسبها قارة في مكانها ، متجانسة مع أخواتها، كل كلمة آخذة بحجز أختها، فلا نبو ولا قلق، بل هو الانسجام التام، والتناسب المعجز، والجمل المكونة للآيات في ترتيبها وتناسقها آية من آيات الإعجاز ، فلا يتركنا هذا التناسب والتناغم في أي مستوى من مستويات الأداء القرآني، فالتناسب الداخلي يدرج مع اسم السورة وتناغمه مع مضمون ومقاصد السورة ، وكذلك مع ألفاظ السورة وجملها وترتيبها، والتناسب بين مطلع السورة وخاتمتها ، أو التناسب بين الشرط والجزاء كما في سورة النصر ، فتناسب القرآن الكريم لا يستقصى، وكله حسن وطيب ، يقول الرافعي : "لا جرم إن المعنى الواحد لا يجزيء واحد منها في موضعه عن الآخر إن أريد شرط الفصاحة ، لأن لكل لفظ صوتًا ، ربما أشبه موقعه من الكلام ، ومن طبيعة المعنى الذي هو فيه ، والذي تساق له الجملة ، وربما اختلف وكان غيره بذلك أشبه ، فلابد في مثل نظم القرآن من إخطار معاني الجمل ، وانتزاع جملة ما يلائمها من ألفاظ اللغة ، بحيث لا تند لفظة ، ولا تتخلف كلمة ، ثم استعمال أمسها بالمعنى ، وأفصحها في الدلالة عليه ، وأبلغها في التصوير ، وأحسنها في النسق ، وأبدعها سناء ، وأكثرها غناء ، وأصفاها رونقا وماء ، ثم اطراد ذلك في جملة القرآن على اتساعه .....في الكلمة وفي الحرف من الكلمة ، حتى يجيء ما هو كأنه صيغ جملة واحدة في نفس واحد "[1] ولذلك يجب أن يكون التدبر القرآني قائمًا على استبصار أوجه التناغى والاعتلاق على كافة مستويات الأداء القرآنى، الكلمة والجملة والآية، والمعقد، والسورة، والسور فهذا الأمر أصبح كما يقول الدكتور / محمد أبو موسى:" ... بابًا من أبواب البلاغة العالية التى تروع من غير أن تكون داخلة تحت مصطلح من مصطلحات

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية . مصطفى صادق الرافعي ص٢٥٦ دار الكتاب العربي . بيروت ط ٩. ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م .

متون علم البلاغة، لأنها علاقات معان تتفق وتختلف وتتقارب وتتباعد، ولها فى تقاربها وتباعدها درجات كل ذلك بتدبير دقيق واعتبارات وسياقات ومقامات منها ظاهر وخفى"[1] من أجل ذلك وغيره ارتاحت الأرواح للقرآن الكريم، واشتاقت له العيون، وهوت له القلوب ، ولم لا ؟ وهو كلام علام الغيوب ، ومعجزة الرسول – صلى الله عليه وسلم –

وسوف يبين البحث هذه الوجوه المعجزة من التناسب :

(١) من أسرار التعبير القرآنى فى سورة الأحزاب د/ محمد أبو موسى ص ٢٤، مكتبة وهبة ط الثانية ١٤١٦هـ.

المبحث الأول

التناسب بين أسماء السورة ومضمونها

إطلاق الأسماء على سور القرآن الكريم كي تتميز أمر توقيفي من النبي – صلى الله عليه وسلم – على الراجح من أقوال أهل العلم، يقول السيوطي "وَقَدْ ثَبَتَ جَمِيعُ أَسْمَاءِ السُّوَرِ بِالتَّوْقِيفِ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ وَلَوْلَا خَشْيَةُ الْإِطَالَةِ لَبَيَّنْتُ ذَلِكَ".(١) وهناك بعض الأسماء التي جاءت على لسان بعض الصحابة باجتهاد منهم مثل سورة (غافر) سماها بعضهم سورة (المؤمن)(٢)

والسورة من القرآن الكريم في ذاتها تحتاج وتطلب أن يكون لها اسم يدل عليها ؛ لأن السورة علم على عدد من آي القرآن الكريم فكان إطلاق اسم عليها أمرًا ضروريًا؛ حتى تعرف بها، وتتميز عن غيرها ، خاصة أن القرآن الكريم نزل منجمًا، وكان جبريل – عليه السلام – يأمر النبي صلى الله عليه وسلم- بوضع آية كذا في سورة كذا ، وكذلك كان يفعل الرسول – صلى الله عليه وسلم – روى محمد بن السائب عن ابن عباس – رضي الله عنه – أنه لما نزلت آخر آية – وهي قوله تعالى: (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله)[البقرة: ٢٨١] الآية – قال جبريل للنبي- صلى الله عليه وسلم – ضعها في رأس ثمانين ومائتين من سورة البقرة .(٣)، والنبي – صلى الله عليه وسلم- كثيرًا ما تحدث عن السور

---

(١) ينظر : الإتقان في علوم القرآن . السيوطي ج١ ص ١٨٦ .

(٢) ينظر : أسماء سور القرآن الكريم وفضائلها . د/ منيرة الدوسري . ص ٧٧ . دار ابن الجوزي . ط أولى ١٤٢٦هـ.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن . القرطبي .ج١ ص ٦١. ت .أ /أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش دار الكتب المصرية – القاهرة ط الثانية ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.

بأسمائها ، كقول النبي – صلى الله عليه وسلم – :(من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال) [١]، وقوله – صلى الله عليه وسلم – : (اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ .....الحديث) [٢]

فأسماء السور توقيفية، وهذا يدل على أهميتها ودورها الرئيس في تدبر السورة والتهيئة لها ، فاسم السورة بمثابة تكثيف وتلخيص لكل المعاني والمقاصد الواردة في السورة ، وهذا هو معنى كلام البقاعي في مقدمة كتابه "مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور" قال: (وبعد: فهذا كتاب، سميته: "مصاعد النظر، للإشراف على مقاصد السور". ويصلح أن يسمى: "المقصد الأسمى في مطابقة اسم كل سورة للمسمى".[٣] وقد بين البقاعي في هذا الكتاب مقاصد كل سورة ليربط بينها وبين أسماء السور ، وقد أدرك الزركشي أهمية النظر في أسماء السور، وبين أن ذلك جار على سنن العرب في كلامها ، فقال :" ينبغى النظر فى وجه اختصاص كل سورة بما سيمت به ، ولا شك أن العرب تراعى فى الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون فى الشئ من خلق أو صفة تخصه ، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائى للمسمى ، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها،

(١) صحيح مسلم ج١ ص ٥٥٥. ت . أ/ محمد فؤاد عبد الباقي . دار إحياء التراث العربي – بيروت . بدون .

(٢) صحيح مسلم ج١ ص ٥٥٣.

(٣) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور . البقاعي ج١ ص ٩٨.

وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز ". [١]

وسورة النصر لها أكثر من اسم هي : النصر وسورة (إذا جاء نصر الله والفتح) والتوديع ، فهذه أسماء تذكر لهذه السورة وسوف يبين البحث أوجه التناسب بين هذه الأسماء و مقاصد السورة ومضامينها :

أولًا : النصر :

وهو أشهر أسمائها، وهو الموجود في غالب المصاحف وكتب التفسير والحديث . [٢]

والنصر في اللغة من مادة (نصر)، والنُّونُ وَالصَّادُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِتْيَانِ خَيْرٍ وَإِيتَائِهِ. وَنَصَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ: آتَاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَالنَّصْرُ: الْعَطَاءُ ، وَلِذَلِكَ يُسَمَّى الْمَطَرُ نَصْرًا. وَنُصِرَتِ الْأَرْضُ، فَهِيَ مَنْصُورَةٌ ، و النَّصر: إِعانة الْمَظْلُوم، وَفِي الْحَدِيثِ (انصُر أَخاك ظالماً أَو مَظْلُومًا) وَتَفْسِيرُهُ أَن يمنَعه مِنَ الظُّلْمِ إِن وَجَدَهُ ظالِماً، وإِن كَانَ مَظْلُومًا أَعانه عَلَى ظَالِمِهِ، والنُّصْرة: حُسْن المَعُونة[٣]، فالنصر معناه الظفر على العدو ، والعطاء ، ورد الظلم ، وحسن المعونة ، وكل هذه المعاني تتناسب مع فيوضات سورة النصر، ففيها النصر على الأعداء ، وفي كل جملها عطاءات وفيوضات ، فقد جاء النصر وهزم الأعداء ،

---

(١) البرهان في علوم القرآن . الزركشي .ج ١ ص ٢٧٠ ت . أ /محمد أبو الفضل إبراهيم . دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه .ط الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م .

(٢) ينظر : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز . الفيروزآبادي . ج١ ص٥٥٠ ت . أ/ محمد علي النجار وأ/ عبد العليم الطحاوي : المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ط ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م . و الإتقان في علوم القرآن . ج١ ص ١٩٦.

(٣) ينظر : مقاييس اللغة مادة (نصر) ولسان العرب (نصر) .

وأي نصر هو ؟! إنه نصر أضيف لله – سبحانه – فأكرم به من نصر، وفتح الله – عز وجل – على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مكة المكرمة التي هي أحب بلاد الله إلى قلب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فكان هذا الفتح علامة فارقة في تاريخ الأمة الإسلامية ، ولذلك كان قوله تعالى :(ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) من بركات هذا الفتح ، فكان نصرًا عظيمًا وفتحًا كبيرًا ، ولم يتوقف عطاءات النصر عند ذلك، فهداية الأمة إلى تسبيح الله واستغفاره فتح وفيض وفضل من الله – عز وجل – وختام السورة (إنه كان توابا) نصر لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– ولأمته ، فالسورة نصر لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولأمته في الدنيا والآخرة ، فالتناسب بين اسم السورة ومقاصدها ومعانيها جلية واضحة ، وقريب من هذا الاسم ما ورد عن أم المؤمنين عائشة أنها سمتها " سورة إذا جاء نصر الله والفتح " فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:"لَمَّا نَزَلَتْ (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) إِلَى آخِرِهَا، مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى صَلَاةً إِلَّا قَالَ: "سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي".[1] فقد سمتها بمطلعها الدال على النصر والفتح، وكل ما في السورة الكريمة من معان ومقاصد يترجمه هذا المطلع .

ثانيا : التوديع :

من أسماء هذه السورة الكريمة (التوديع) وقد جاء ذلك على لسان بعض الصحابة كعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عباس – رضي الله عنهم

(١) صحيح ابن خزيمة ج١ ص ٤٢٩ ت . د/ محمد مصطفى الأعظمي . المكتب الإسلامي . ط الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م .

أجمعين ــ [١] ومعنى التوديع التخلية والترك[٢]، والمعنى مناسب لما فهم من السورة فهي إخبار بقرب أجل النبي – صلى الله عليه وسلم – قال ابن مسعود: (تسمى سورة التوديع لما فيها من الإيماء إلى وفاته عليه الصلاة والسلام وتوديعه الدنيا وما فيها). [٣]

وقد جاء في رواية للبخاري: أن عمر رضي الله عنه سأل أشياخ بدر فقال: ما تقولون في قول الله تعالى: إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ، حتى ختم السورة، فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره، إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال: أكذلك تقول يا ابن عبّاس؟ قلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت هو أجل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أعلمه له ، قال: إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فذلك علامة أجلك فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً ، فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلّا ما تقول.»[٤] فابن عباس – رضي الله عنهما– يفهم من السورة الكريمة أنها إيذان بوفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – وقرب توديعه

(١) ينظر : الإتقان ج١ ص ١٩٦. و بصائر ذوي التمييز ج ١ص ٥٥٠ و أسرار التكرار في القرآن . الكرماني . ص ٢٥٦ ت . أ/ عبد القادر أحمد عطا . : دار الفضيلة. بدون . وجمال القراء وكمال الإقراء . علم الدين السخاوي . ج١ ص ٢٠٢ت . د/ عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي . مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت ط الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩م.

(٢) ينظر : لسان العرب (ودع) ومقاييس اللغة (ودع) ج٦ ص ٩٦.

(٣) مفاتيح الغيب . فخر الدين الرازي . ج ٣٢ ص ٣٣٩ دار إحياء التراث العربي – بيروت ط . الثالثة – ١٤٢٠ هـ و روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. الألوسي . ج١ ص ٤٩١. ت . أ/ علي عبد الباري عطية. دار الكتب العلمية – بيروت . ط الأولى، ١٤١٥ هـ .

(٤) صحيح البخاري ج ٦ ص ١٧٩

للدنيا ، ويؤيده الفاروق – رضي الله عنه – في هذا الفهم، وفي روايةٍ عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها– قالت: (كان رسولُ اللهِ عليه الصّلاة والسّلام يُكثِرُ من قول سبحانَ اللهِ وبحمدِه، أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه. قالت: فقلت يا رسولَ اللهِ! أراك تُكْثرُ من قولِ: سبحانَ اللهِ وبحمدِه أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه؟ فقال: أخبرني ربّي أنّي سأرَى علامةً في أُمّتي، فإذا رأيتُها أكثرتُ من قولِ سبحانَ اللهِ وبحمدِه أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه. فقد رأيتُها (إذا جاء نصر الله والفتح)، وفتحُ مكةَ (ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً)[1] .

وقد ذكر صاحب بصائر ذوي التمييز أن معظم مقصود السّورة هو بيان نعى المصطفى – صلى الله عليه وسلَّم – حتى إنه تابع الكرماني في جعل جواب(إذا) مضمر تقديره: إذا جاءَ نصر الله إيّاك، على من ناواك، حضر أَجلك. [2] وهذا التقدير للجواب ، وإن كان غير راجح إلا أنه يكشف عن قوة تشبع الفيروزبادي بفكرة قرب أجل النبي – صلى الله عليه وسلم – المفهوم من هذه السورة .

ولكن كيف فهم التوديع ؟ فهم التوديع من الفهم الذكي لتأويل السورة مع مراعاة سياقها النزولي فهي من أواخر السور نزولا[3]، بل كلام البقاعي يدل

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٤٠ ص ٧٦ ت . الشيخ / شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون. مؤسسة الرسالة. ط . الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م

(٢) ينظر : بصائر ذوي التمييز ج ١ص ٥٥٠ .و أسرار التكرار في القرآن . الكرماني . ص ٢٥٦.

(٣) ينظر : التفسير الحديث . د/ دروزة محمد عزت ج ٩ ص ٥٧٣ . دار إحياء الكتب العربية – القاهرة . ط . ١٣٨٣ هـ

على أنها نزلت بعد حجة الوداع، وبعد سورة التوبة، وأن الصحابة استيقنوا من خلالها بدنو أجل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول البقاعي : " واستشعر الناس عام حجة الوداع وعند نزول براءة ذلك ، لكن لم يستيقنوه، وغلبوا رجاءهم في حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنهم من توفي ، فلما نزلت {إذا جاء نصر الله والفتح} استيقن أبو بكر رضي الله عنه ذلك استيقاناً حمله على البكاء لما قرأها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " [1]، فنزول هذه السورة بهذه المعاني وفي هذا التوقيت يدل على قرب انتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى – فدين الله قد ظهر ، ووعد الله قد تم ، ودخلت قبائل العرب في الإسلام فكأن الأمر قد انتهى والسورة تقول : قد تم أمرك يارسول الله ، ومعلوم أنه إذا تم شيء ترقب نقصانه .

كما أن قوله تعالى : (فسبح بحمد ربك واستغفره) يدل على أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالاستعداد للقاء ربه – عز وجل – لأن التسبيح والاستغفار غالبًا يكون في نهاية العبادات ، فالمسلم يصلي ويختم الصلاة باستغفار ربه ، وكذلك بعد رمي الجمرات يؤمر العبد بالاستغفار ، فالنبي – صلى الله عليه وسلم– يؤمر بالتسبيح والتحميد والاستغفار ، تهيئة له – صلى الله عليه وسلم – للقاء ربه – عزوجل – وهذا هو المعنى الذي التقطه ابن عباس وغيره وأوَّل به السورة ، وبذلك يظهر تمام المناسبة بين اسم السورة (التوديع) وبين مضمونها .

ثالثا : الفتح :

وقد عنون الترمذي لهذه السورة بسورة الفتح قال : (بَاب وَمِنْ سُورَةِ الْفَتْحِ)، وساق حديث ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ عُمَرُ يَسْأَلُنِي مَعَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: أَتَسْأَلُهُ وَلَنَا بَنُونَ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ لَهُ

(١) نظم الدرر ج ٣٢ ص ٣١٦ .

عُمَرُ: إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ تَعْلَمُ، فَسَأَلَهُ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالفَتْحُ} [النصر: ١] فَقُلْتُ: «إِنَّمَا هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ إِيَّاهُ، وَقَرَأَ السُّورَةَ إِلَى آخِرِهَا»، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ.(١)

وقد نص المباركفوري في تحفته على هذا الاسم قال : " باب وَمِنْ سُورَةِ الْفَتْحِ وَتُسَمَّى سُورَةَ النَّصْرِ أَيْضًا"(٢) والذي يظهر لي أن هذا الاسم من اجتهاد الترمذي – رضي الله عنه – ولم أقف على كتاب في التفسير ولا في الحديث ولا الآثار ذكرها بهذا الاسم اللهم إلا الطاهر ابن عاشور فقد نقل كلام الترمذي مبينًا سبب إطلاق هذا الاسم عليها فقال :" هي – أي سورة النصر – معنونة في «جامع الترمذي» «سورة الفتح» لوقوع هذا اللفظ فيها فيكون هذا الاسم مشتركًا بينها وبين سورة : إنا فتحنا لك فتحًا مبينا(٣)، والمناسبة جلية واضحة بين هذا الاسم والسورة ، فأعظم فتح هو فتح مكة، ولأنه أعظم فتح فإن هذه الكلمة (الفتح) ذكرت دون ما يوضحها ويحدد معالمها ، لأنها إذا أطلقت فلا ينصرف الذهن إلا لفتح مكة ، فصارت كلمة (الفتح) علمًا بالغلبة على فتح مكة دون غيره .

(١) ينظر : سنن الترمذي ج ٥ ص ٤٥٠ ت . الشيخ / أحمد شاكر وآخرين . مطبعة الحلبي . ط الثانية .١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م .

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي. المباركفورى ج ٩ ص ٢٠٧. دار الكتب العلمية – بيروت .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير . الطاهر بن عاشور ج ٣٠ ص ٥٨٧ . الدار التونسية للطباعة والنشر . ط . ١٩٨٤م .

المبحث الثاني

التناسب بين مطلع السورة ومعناها ومقصدها

المطلع هو الجملة الأولى – اسمية كانت أو فعلية – وتوابعها من عطف البيان والنسق والبدل وغير ذلك في صدر كل سورة من سور الذكر الحكيم ، ويختلف مطلع السورة قصرًا وطولًا حسبما جاء عليه تركيب الجملة الأولى وتوابعها ، وقصار السور يشبه أن تكون جملة واحدة إلا أنك تستطيع أن تعد الجملة الأولى مطلعًا للتوابع المذكورة في السور بعد [١] ، فيكون مطلع سورة النصر قوله تعالى :﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ ﴾ النصر: ١

وقد أجمع البلاغيون على أن فواتح سور القرآن الكريم بلغت أعلى درجات البلاغة فى حسن ملاءمتها لمعاني كل سورة، " فقد جاءت فاتحة كل سورة فى غاية التلاؤم والتناسب مع ما تتضمنه السورة من أحكام وعظات وقصص وأمثال". [٢]

ويذكر الخطيب أن أحسن الابتداءات ما ناسب المقصود وأن جميع فواتح السور وخواتمها واردة على أحسن وجوه البلاغة وأكملها ويظهر ذلك بالتأمل فيها مع التدبر". [٣]

---

(١) ينظر : علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم . دراسة بلاغية نظرية تطبيقية . د/ إبراهيم الهدهد ص ٥٩٩ ومابعدها . مكتبة الإيمان . ط أولى ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م .

(٢) دراسات منهجية فى علم البديع د/الشحات أبو ستيت ص ١١٨ ٠ دار خفاجى للطباعة والنشر ط أولى ١٩٩٤م ٠

(٣) ينظر: الإيضاح الخطيب القزوينى ج٦ ص ١٤٩ ٠٠ ت٠د/ محمد عبد المنعم خفاجى ٠دار الجيل . بيروت. بدون .

والناظر فى مطلع السورة القرآنية يجد خيطًا ينطلق منها إلى كل معنى ومقصد وقصة فى السورة يشد هذا الخيط كلَّ ذلك إلى المطلع مما يقوى التعانق بين آيات السورة ويجعلها متشابكة بعضها من بعض بشكل يأخذ بالألباب ، فيقرأ القارئ السورة وينتقل من آية إلى آية فلا يحس إلا بتدفق وانسجام وسلاسة والتئام حتى كأنه يقرأ كلمة واحدة أو ينطق لفظًا واحدًا.

وسورة النصر تنطق بكل ذلك وأكثر ، فمطلعها قوله تعالى :" إذا جاء نصر الله والفتح " ، "ومما تحسن به المبادئ أن يصدر الكلام بما يكون فيه تنبيه وإيقاظ لنفس السامع أو أن يشرب ما يؤثر فيها انفعالًا ويثير لها حالًا من تعجيب أو تهويل أو تشويق أو غير ذلك مما تقدمت الإشارة إليه."[1] فالمطلع (إذا جاء نصر الله والفتح) يشوق لمعرفة ما بعده فيجعل المتلقي على تأهب عظيم لمعرفة أسلوب الشرط بتمامه ، وكل كلمة في السورة مردها إلى هذا المطلع ، فدخول الناس في دين الله أفواجًا قمة النصر، بل هو آية النصر وغاية الجهاد والدعوة وهو فتح الفتوح ، وما كان الأمر بالتسبيح والاستغفار إلا لما قد يكون داخل القلب من استبطاء لنصر الله ، كما جاء في قوله تعالى :﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ البقرة: ٢١٤ والحمد لفظ يستعمل فى معان كثيرة ، فهو يستعمل فى معنى الشكر على حصول نعمة ، أو تحقق رغبة ، أو انجلاء كربة ، وتستعمل كلمة "الحمد " عند ظهور سنة الله الحكيمة العادلة فى هذه الدنيا حيث يهلك المجرمون بعذاب الله، ويفرح المؤمنون

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء . حازم القرطاجني ص ١٠٠

بنصر الله [1] فالحمد مناسب لمجيء النصر والفتح ؛ لأنها نعم وعطاءات تقابل بالحمد والشكر اعترافا بفضل الله – عزوجل – وكريم عطائه ، وبذلك يتضح أن كل المفردات الخاصة بهذه السورة الكريمة تحكي قصة من قصص النصر الإلهي فجو السورة كله نصر وفيض بالخير من الله – عزوجل – فجاءت السورة متناسبة مع مطلعها وكان المطلع دالا على كافة المعاني الواردة في السورة ، وهذا يأخذنا إلى بيان التناسب بين المطلع ومقصد السورة :

وقبل أن نبين التناسب بين مطلع السورة ومقصدها يحسن أن نبين معنى مقصد السورة وكيفية استخلاصه من السورة ومقصد السورة هو" مفتاح خزائن كلِّ سورة من لطائف المعانى، ورقائقها، وحقائقها، لأنَّه المهيمن على كلِّ عنصر من عناصر البيان فى السورة" [2] وقد فصل شيخنا العلامة د إبراهيم الهدهد القول في بيان معنى مقصد السورة، وكيفية الوصول إليه بطريقة منهجية علمية ؛ فذكر أن مقصد السورة تتظاهر تراكيب السورة على بيان غرضه ، والوقوف على هذا الغرض أمر شاق ، وبيَّن – رضي الله عنه – أن عدة أمور تساعد المتدبر على الكشف عن مقصد السورة ، كعلم المناسبات الذي يبين علائق السور بعضها ببعض ، ويذكر– أستاذنا – أن البقاعي كان يسترشد بمواقع السور في تحديد مقصودها ، وتسمية السورة من الوسائل الكاشفة عن مقصود السورة ، وكذلك المفردات الخاصة بالسورة تكون معلمًا على المقصد الخاص بها ، فلكل

(١) ينظر: قاموس القرآن " إصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم " الفقيه المفسر الحسين ابن محمد الدامغاني ص ١٤٤ " حمد " ت ٠أ/ عبد العزيز سيد الأهل ٠ دار العلم للملايين بيروت ط الثالثة ١٩٨٠م ٠

(٢) العزفُ على أنوار الذِّكر . معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآنيّ في سياق السورة د/محمود توفيق محمد سعد ص ٩٣ مكتبة وهبه٠ط أولى ١٤٢٤هـ .

سورة معجمها الذي تمتاز به عن نظائرها ، ويضاف إلى الوسائل المعينة على تحديد مقصد السورة قصص الأنبياء والموضوعات التي اشتملت عليها السورة .[١]

ومعرفة مقصد السورة يأخذ بيد المتدبر إلى معرفة المعاني التي تنطق بها الآيات خاصة أن القرآن الكريم حمَّال أوجه ، فيأتي مقصد السورة ليقرب المتدبر إلى أقرب وجه وأهداه ، قال البقاعي: " ومن حقق المقصود منها- أي من السورة- عرف تناسب آيها، وقصصها، وجميع أجزائها. ".[٢] فالبقاعي – كما يقول أستاذنا الدكتور محمود توفيق سعد – : "يجعل العِرفان بمقصود السورة أساسَ الإجادةِ في فقه تناسب القرآن الكريم من حيث العِرفان بعلل ترتيب أجزاء البيان القرآنيّ ، بدأ من الكلمة في الجملة وانتهاءً بالسُّورة، وفي الوقت نفسه يعود ذلك بالنفع الجليل على معرفة المقصود من جمل السورة بفقه نظمها التركيبي ، وهذا يجعل المُؤَوِّلَ للبيان القرآني الكريم قائمًا في مقام الحركة الترددية بين تأمل وتذوق الجزء وتدبر وتذوق الكلِّ ، فكلَّما زدت البيان القرآني نظرًا في جزء منه زادك اقتدارًا على عرفان المقصود الأعظم، وكلَّما زدت المقصود الأعظم نظرًا زادك فهما لبيان النظم التركيبي للجملة."[٣] فمقصود السورة يستنبط بعد تدبر وتأمل من جزئيات السورة ، والنظر في هذا المقصود

---

(١) ينظر : علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم . دراسة بلاغية نظرية تطبيقية . د/إبراهيم الهدهد . ص ٥٦٧ وما بعدها . مكتبة الإيمان . القاهرة . ط الأولى ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م .

(٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ج١ ص ١٤٩.

(٣) الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن . د/ محمود توفيق محمد سعد ص ١٩٢ مكتبة وهبة .ط أولى ١٤٢٤هـ.

يساعد على فقه البيان القرآني للأساليب والآيات . " والعناية بتأويل مطلع السورة ودلالته على مقصودها الأعظم ، معدنه الإيمان بأن السورة القرآنية قائمة من معني كلى مهيمن على مكونات السورة كلها، وأن فى مفتتح السورة ما يهدى إلى مكنونها من المعاني، وهذا المنهاج فى التأويل هو من أصول النظر العربي فى فقه البيان". (١)

وقد ذكر البقاعي أن مقصود سورة النصر هو " الإعلام بتمام الدين، اللازم عن مدلول اسمها، اللازم عنه موت النبي – صلى الله عليه وسلم – اللازم عنه العلم، بأنه ما يرد إلى عالم الكون والفساد، إلا لإعلاء كلمة الله، وإدحاض كلمة الشيطان، اللازم منه: أنه – صلى الله عليه وسلم – خلاصة الوجود، وأعظم عبد للولي الودود". (٢)

وما ذكره البقاعي هو إلمام بكل عطاءات السورة ، وأن السورة تبين تمام الدين وأن الرسالة قد تمت والأمانة قد أدت ، وأن النصح للأمة قد بلغ ذروة الكمال ، ولذلك ففيها إعلان بقرب وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – الذي هو خلاصة هذا الوجود ، وأفضل عبد لله –عز وجل– .

وإذا طبقنا عطاءات ما ذكره شيخنا الهدهد في كيفية استخلاص مقصد السورة ، نستطيع أن نصل إلى مقصد السورة ، فالسورة في سياقها المصحفي وقعت بعد "الكافرون " التي تعلن براءة الرسول – صلى الله عليه وسلم – من الكفر وأهله ، وإفراد الله الواحد الأحد بالعبودية والتسليم ، ولذلك استحق نصرالله الموعود به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والفئة المؤمنة بالله –عز وجل– فمن تحقق بسورة الكافرون ، وأعلن براءته من الكفر وأهله جاءه نصر الله ،

(١) الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن . د/ محمود توفيق محمد سعد ص٢٣١

(٢) مصاعد النظر ج ٣ ص ٢٦٨ وما بعدها .

أما غيرهم من الكفرة الفجرة فجزاؤهم جهنم وبئس المصير كما ورد في سورة المسد التي بينت جزاء عَلَمين من أعلام الكفر هما أبو لهب و زوجه حمالة الحطب .

واسم السورة هو (النصر) وقد ذكر البقاعي " أن اسم كل سورة مترجِم عن مقصودها ؛ لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسمَّاه عنوانه الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه". (١)

لذلك أرى أن مقصد السورة الأساسي وهدفها الذي إليه تعمد ، هو تربية الأمة على الثقة في نصر الله والتناسب بين المطلع (إذا جاء نصر الله والفتح) ومقصد السورة في غاية الوضوح ، بل إن المطلع يدل على أن النصر من الله – عز وجل – ينزله على من يشاء من عباده إذا كانوا أهلًا لنصر الله في الوقت الذي يحدده الله – عز وجل – وهذا المعنى هو نفسه مقصد السورة الذي هو تربية الأمة على الثقة في نصر الله ، وبذلك يتضح قوة الاعتلاق ووشائج القربى بين مطلع السورة ومعانيها ومقصدها .

(١) نظم الدرر ج١ ص ١٨.

المبحث الثالث

التناسب بين المطلع والخاتمة

ذكر الشافعي – رضي الله عنه – أن الله خاطب بكتابه العربَ بلسانها، على ما تَعْرِف مِن معانيها، وكان مما تعرف من معانيها أنها تَبْتَدِئ الشيءَ من كلامها يُبَيِّنُ أوَّلُ لفظها فيه عن آخره، وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظِها منه عن أوَّلِهِ. (١)

وقد تنبه العلماء لهذا اللون من التناسب وأداروه على كافة سور القرآن خاصة الطوال منها ، وأفرد السيوطي له كتابا سماه:" مراصد المطالع فى تناسب المقاطع والمطالع "

وجاء فى مقدمة التحقيق لهذا الكتاب وهناك تناسب آخر عجيب ، فى القرآن، وهو ما يُرى من التآلف والتعانق بين مطلع السورة وختامها فى جمهور سور القرآن تآلفًا وتعانقًا يأخذ بالألباب، وينبئ عن سبيل من سبل الإعجاز البياني للقرآن". (٢)

وأكثر أبو حيان من تتبع هذا اللون فى سور القرآن الكريم حيث يقول : "وَقَدْ تَتَبَّعْتُ أَوَائِلَ السُّوَرِ الْمُطَوَّلَةِ فَوَجَدْتُهَا يُنَاسِبُهَا أَوَاخِرُهَا، بِحَيْث لَا يَكَادُ يَنْخَرِمُ مِنْهَا شَيْءٌ، وَسَأُبَيِّنُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي آخِرِ كُلِّ سُورَةٍ سُورَةٍ، وَذَلِكَ مِنْ أَبْدَعِ الْفَصَاحَةِ، حَيْثُ يَتَلَاقَى آخِرُ الْكَلَامِ الْمُفْرِطُ فِي الطُّولِ بِأَوَّلِهِ، وَهِيَ عَادَةٌ لِلْعَرَبِ فِي كَثِيرٍ مِنْ نُظُمِهِمْ، يَكُونُ أَحَدُهُمْ آخِذًا فِي شَيْءٍ، ثُمَّ يَسْتَطْرِدُ مِنْهُ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ، ثُمَّ

---

(١) ينظر : الرسالة ص ٥٠ ت . الشيخ / أحمد شاكر مكتبه الحلبي . مصر . ط . الأولى، ١٣٥٨هـ/١٩٤٠م.

(٢) مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع . السيوطي . ص ١٤ ت . د./ عبد المحسن ابن عبد العزيز العسكر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ .

إِلَى آخَرَ، هَكَذَا طَوِيلًا، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى مَا كَانَ آخِذًا فِيهِ أَوَّلًا. وَمَنْ أَمْعَنَ النَّظَرَ فِي ذَلِكَ سَهُلَ عَلَيْهِ مُنَاسَبَةُ مَا يَظْهَرُ بِبَادِئِ النظم أَنَّهُ لَا مُنَاسَبَةَ لَهُ". (١)

وكما اهتم أهل العلم بتجويد ابتداء الكلام لأنه أول ما يقرع السمع ، اهتموا ــ أيضًا ــ بنهايته وذكروا أن البلاغة تقتضى حسن الانتهاء؛ لأنها آخر ما يعيه السمع ويرتسم فى النفس ، وجميع فواتح السور وخواتمها واردة على أحسن وجوه البلاغة وأكملها ، يظهر ذلك بالتأمل فيها مع التدبر. (٢)

ويذكر السيوطي أن خواتم السور القرآنية تدور بين الأدعية والوصايا والفرائض والتحميد والتعليل والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك مما يناسب جو السورة نفسها من بدايتها إلى نهايتها(٣) فالسيوطى يلفتنا إلى أن نهاية السورة يأتى متسقًا مع جو السورة وما فيها من معان وأحداث، وبَيَّنَ البقاعي التناسب بين مطلع السورة (إذا جاء نصر الله والفتح) وبين نهاية السورة (إنه كان توابًا) فقال :

"فقد رجع آخر السورة إلى أولها؛ لأنه لولا تحقق وصفه بالتوبة لما وجد الناصر الذي وجد به الفتح والتحم مقطعها أي التحام بمطلعها، "(٤)

وأرى أن (توابًا) لا ترد إلى المطلع فحسب، بل إلى كل ألفاظ السورة فالله – عز وجل– تواب فاستغفروه ؛ لأنه يقبل توبة المستغفر، ولذلك هو أحق أن يحمد ويسبح به فينزه عن كل نقص – سبحانه – ويثبت له كل كمال .

---

(١) البحر المحيط ج٢ ص ٣٦٢ ٠ دار الفكر – بيروت الطبعة: ١٤٢٠ هـ .

(٢) ينظر : الإيضاح ج٦ ص ١٥٣ ٠

(٣) ينظر: الإتقان فى علوم القرآن الإمام السيوطي ج٢ ص ١٠٧.

(٤) نظم الدرر ح ٢٢ ص ٣٢٠ وما بعدها .

والله – عز وجل– تواب لذلك تاب على صناديد الكفر عندما جاؤا ليـــدخلوا في دين الله أفواجا ، وهو – سبحانه – تواب لذلك نصر رسوله – صلى الله عليه وسلم – وصحابته الكرام بعد أن استبطؤا النصر وظنوا بالله الظنون فلولا أنـــه – سبحانه – تواب لما تحقق لهم هذا النصر والفتح وهذا هو معنى كلام البقـــاعي " لولا تحقق وصفه بالتوبة لما وجد الناصر الذي وجد به الفتح" وبذلك يظهر قـــوة الاعتلاق وكمال التناسب بين المطلع والخاتمة .

المبحث الرابع

التناسب في ألفاظ السورة و ترتيب جملها

ما أجمل كلام البقاعي وهو يبين لحمة التناسب المتناغمة في سور القرآن الكريم فيذكر أن السورة "كالشجرة النضيرة العالية، والدوحة البهيجة الأنيقة الخالية، المزينة بأنواع الزينة المنظومة بعد أنيق الورق بأفنان الدر، وأفنانها منعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر، وكل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها، وشعبة ملتحمة بما بعدها، وآخر السورة قد واصل أولها، كما لاحم انتهاؤها ما بعدها ، وعانق ابتداؤها ما قبلها، فصارت كل سورة دائرةً كبرى، مشتملة على دوائر الآيات الغُرِّ، البديعة النظم، العجيبة الضم، بلين تعاطف أفنانها، وحسن تواصل ثمارها وأغصانها."(١)

ولأن السورة الكريمة وحدة تامة يجمع بين موضوعاتها وأجزائها وشائج القربى والاعتلاق فإن الدرس البلاغي الرصين يؤكد على وجوب التغلغل فى زوايا النص ومعايشته وصولًا إلى شيء من جمال النظم القرآني وجلاله، وهذا ما أكد عليه الإمام عبد القاهر الجرجاني في قوله : " اعلمْ أنك لا تَشْفي الغُلَّة ولا تنْتهي إِلى ثلجِ اليقينِ، حتى تتجاوزَ حدَّ العلمِ بالشيء مجْملاً، إِلى العِلْم به مفصَّلاً، وحتَّى لا يُقْنِعَك إِلاّ النظرُ في زواياهُ، والتَّغلغلُ في مكامنه، وحتى تكون كمَنْ تتَبَّع الماءَ حتى عرَفَ منْبَعهَ، وانتهى في البحثِ عن جوهرِ العُود الذي يُصْنَع فيه إِلى أنْ يعْرِفَ منْبِتَه، ومَجرى عُروق الشجرِ، الذي هو منه "(٢) ومن النصح لكتاب الله – عز وجل – أن يكون التدبر في سوره وفق هذا الأداء البلاغي الذي قرره الإمام عبدالقاهر مع اتساع النظر ليشمل كافة وجوه الاعتلاق بين كافة مستويات الأداء

(١) مصاعد النظر ج١ ص ١٤٩.

(٢) دلائل الإعجاز . عبدالقاهر الجرجاني . ص ٢٦٠.

القرآني ، ومع كل هذا يبقى البيان القرآني معطاءً يفيض بالنفحات والهبات ؛ فهو المعجزة الخالدة التي تُصلح كل زمان ومكان ؛ ولذلك كانت معانيه وأفكاره وكل عطاءاته متجددة كأنها أنزلت لهذا الزمان والمكان .

وسوف نبين ذلك التجانس والتآلف الجامع بين مكونات سورة النصر ليتضح جمال التناسب بين الألفاظ وقوة اتحاد أجزاء الكلام وتداخل بعضها في بعض.

وقد بدئت السورة بـ (إذا)، وهي ظرف زمان مستقبل ضمن معنى الشرط، ويختص بالدخول على الجملة الفعلية[1]، يقول الإمام الرضي: " إذا ، وهي للمستقبل ، وفيها معنى الشرط ، فلذلك اختير الفعل بعدها[2] ، والأصل فيها القطع بوقوع الشرط ، ولذلك غلب لفظ الماضي مع " إذا " لكونه أقرب إلى القطع بالنظر إلى لفظه [3]، وكافة الأحداث المكونة لجملة الشرط من نصر الله وفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجًا ناسبها أداة الشرط (إذا) لكونها محققة الوقوع، ولذلك جاء فعل الشرط ماضيًا تناسبًا مع دلالة التحقق التي أفادتها " إذا " يقول

---

(١) ينظر : الكتاب جـ٤ صـ٢٣٢ ، والجنى الداني في حروف المعاني . للمرادي صـ٣٦٧ ، ومغني اللبيب جـ١ صـ٢١٠ ، ودراسات لأسلوب القرآن الشيخ / محمد عضيمة . القسم الأول . جـ١ صـ١٤٣ وما بعدها ، والنحو الوافي أ/ عباس حسن . جـ٤ صـ٤٤٠ وما بعدها .

(٢) شرح الرضى جـ٣ص١٨٤ .ت . د/ يوسف عمر .منشورات جامعة قابوس بن غازي . ط الثانية ١٩٩٨م.

(٣) ينظر : مفتاح العلوم. للإمام أبي يعقوب يوسف السكاكي صـ٢٤٠ – ٢٤١ . ت . أ /نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية . بيروت . ط الثانية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، والإيضاح م١ جـ٢ صـ١١٦ – ١١٧ ، والمطول صـ١٥٤ وما بعدها ، والمصباح المنير في المعاني والبيان والبديع لبدر الدين بن مالك . صـ٥٤ وما بعدها . ت . د / حسنى عبد الجليل يوسف . مكتبة الآداب . القاهرة . بدون ، وبغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة . الشيخ / عبد المتعال الصعيدي . جـ١ صـ١٤٠– ١٤١ ، مكتبة الآداب . طبعة ١٩٩٩م .

البقاعي : " وللإشارة إلى الغلبة على جميع الأمم ساقه تعالى في أسلوب الشرط، ولتحققها عبر عنه بـ {إذا} إعلاماً بأنه لا يخلف الوعد ولا ينقص ما قدره، وإن توهمت العقول أنه فات وقته" [١]، ولما كانت (إذا) دالة على الاستقبال كان المعني إذا نصرك الله وفتح عليك مكة ودخل الناس في دين الله جماعات جماعات فسبح بحمد ربك واستغفره ، ومعنى هذا أن كافة هذه الأحداث لم تقع، وأن السورة نزلت قبل فتح مكة ، والثابت والراجح أن سورة النصر من أواخر السور نزولًا ، وأخرج مسلم عن ابن عباس قال:"آخر سورة نزلت: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}[٢]، وعن ابن عمر أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عاش بعد نزولها نحوًا من ثلاثة أشهر[٣]، وعليه يكون تعليق جملة: فسبح بحمد ربك – على الشرط الماضي مرادًا به التذكير بأنه حصل، أي إذا تحقق ما وعدناك به من النصر والفتح وعموم الإسلام بلاد العرب فسبح بحمد ربك، وهو مراد من قال من المفسرين (إذا) بمعنى (قد) ، فهو تفسير حاصل المعنى، وليست إذا مما يأتي بمعنى (قد) [٤]، فروح السورة يلهم أن ذلك الواجب قد وجب وأن ذلك المجيء قد جاء. والروايات والأحاديث تؤيد ذلك كما هو المتبادر. [٥] فـ(إذا) مستعملة في مجرد التوقيت دون تعيين. [٦]

(١) نظم الدرر ج٢٢ ص ٣١٤

(٢) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٣١٨ .

(٣) التحري والتنوير ج ٣٠ ص ٥٨٨ .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٥٨٨.

(٥) التفسير الحديث د/ دروزة محمد عزت . ج ٩ ص ٥٧٥ وما بعدها .

(٦) ينظر : التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٥٨٨.

وفعل الشرط " جاء " مناسب أتم المناسبة في هذا السياق ؛ إذ الملاحظ أن النصر في القرآن الكريم تارة يأتي معه "جاء" وأخرى يأتي معه " أتى " وكما يقول الخطيب الإسكافي : (إذا أورد الحكيم- تقدست أسماؤه- آية على لفظة مخصوصة، ثم أعادها في موضع آخر من القرآن، وقد غير لفظة عما كانت عليه في الأولى فلا بد من حكمة هناك تطلب، وإن أدركتموها فقد ظفرتم، وإن لم تدركوها فليس لأنه لا حكمة هناك، بل جهلتم). (١)

وكلٌ مناسب لسياقه ومقامه وملابساته ، ومن حق التدبر القرآني علينا أن نتلمس الفرق بين المجيء والإتيان ، ونبين شيئا من أسرار استعمالهما في القرآن الكريم ، والفكرة الراسخة والشائعة في التفرقة بينهما أن (أتى) تستعمل فيما هو أيسر من جاء، وأن "جاء" يأتي لما فيه صعوبة ومشقة وهذه الفكرة مردها إلى الدكتور فاضل السامرائي حيث قال : "والذي استبان لي أن القرآن الكريم، يستعملُ المجيءَ لما فيه صعوبةٌ ومشقة، أو لما هو صعب وأشق مما تُستعمل له (أتى) فهو يقول مثلاً: {فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التنور} [المؤمنون: ٢٧] وذلك لأنّ المجيء فيه مشقة وشدة. وقال: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} [ق: ١٩] . وقال {لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً} [الكهف: ٧١] . وقال: {لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً} [الكهف: ٧٤] . وقال: {قَالُواْ يامريم لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً} [مريم: ٢٧] . وقال: {وَقَالُواْ اتخذ الرحمان وَلَداً * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً * تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً} [مريم: ٨٨-٩٠] . وقال: {وَقُلْ جَآءَ الحق وَزَهَقَ الباطل إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقاً} [الإسراء: ٨١] . وقال: {فَإِذَا جَآءَتِ الصآخة

(١) درة التنزيل وغرة التأويل الخطيب الإسكافي ج١ ص ٢٥٠ ت . د/ محمد مصطفى آيدين نشر : جامعة أم القرى ط الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

* يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ} [عبس: ٣٣-٣٤] . وقال: {فَإِذَا جَآءَتِ الطآمة الكبرى} [النازعات: ٣٤. [وهذا كله مما فيه صعوبة ومشقة." [١]

ويؤكد الدكتور / محمود حمدان على فكرة صعوبة المجيء فيقول : " ويتصل بصعوبة المجيء دلالة المادة على الغلبة والإلجاء "[٢] ويسوق شواهد قرآنية كثيرة تبين أن الفعل "جاء " يأتي في شواهد العذاب والهلاك والأمر به وما هو من قبيل ذلك كالخوف وكل ما هو فظيع ، لأن هذا الفعل مناسب للصعوبة التي في هذه الآيات .[٣]

وجذور هذه الفكرة أراها عند الراغب الأصفهاني فقد ذكر أن الإتيان مجيءٌ بسهولة، ومنه قيل للسيلِ المارّ على وجهه أتي والمجيء كالإتيان، لكن المجيء أعم، لأن الإتيان مجيء بسهولة. [٤]

وإذا سلمنا بهذه الفكرة في التفرقة بين الفعل "جاء" و" أتي" فما القول في مجيء الفعلين مع " النصر" في القرآن الكريم ؟ ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ الأنعام: ٣٤

(١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل د / فاضل السامرائي ص ٩٧ وما بعدها . دارعمار الأردن . ط الثالثة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م .

(٢) الإتيان والمجيء : فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم . د/ محمود موسى حمدان ص ١٤مكتبةوهبةط الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٨م

(٣) ينظر : السابق ص ٣٦ .

(٤) ينظر : المفردات في غريب القرآن . الراغب الأصفهاني ص ٦٠وص ٢١٢ ت . أ/صفوان عدنان الداودي . دار القلم، الدار الشامية – دمشق . بيروت . ط الأولى – ١٤١٢ هـ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ يوسف: ١١٠

ويبين الدكتور فاضل السامرائي من خلال تدبر السياق أن كل فعل مناسب للسياق الوارد فيه ، فالنصر في سورة يوسف أصعب وأشق وذلك أن الرسل بلغوا درجة الاستيئاس وهي أبعد وأبلغ ، وذهب بهم الظن إلى أنهم كذبوا أي : أن الله – سبحانه وتعالى – كذبهم ولم يصدقهم فيما وعدهم به وهذا أبلغ درجات اليأس ، وعند ذلك جاءهم نصره – سبحانه – في حين أن آية الإنعام ذكرت أن الرسل قد كذبهم الكافرون وأوذوا فصبروا ، وفرق بعيد بين الحالتين فقد يكذب الرسل وأتباعهم ويؤذون ، ولكن الوصول إلى درجة اليأس والظن بالله الظنون البعيدة أمر كبير .(١)

وبتمثل تلك الدلالات وتدبر السياق النزولي لهذه السورة الكريمة نجد أن الفعل " جاء " مناسب أتم المناسبة ؛ لأن مجيء النصر هنا فيه صعوبة ومشقة فهو يحكي قصة كفاح وجهاد استمرت بضعًا وعشرين سنة ابتلي فيها النبي – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنون وزلزلوا زلزالًا شديدًا ، فمجيء النصر هنا صعب وفخم ؛ لذلك كان من المناسب مجيء الفعل " جاء " في هذه السورة الكريمة التي كانت خاتمة الحديث عن رحلة كفاح النبي – صلى الله عليه وسلم – وصحابته الكرام والتي لم تكن سهلة ، بل كانت مثالًا للجهاد والصبر على صنوف الابتلاء ، فـ"جاء " أنسب في هذا السياق من "أتى" .

وما أجمل تعبير الرازي وهو يبين مناسبة مجيء الفعل (جاء) مع (نصر الله) يقول رحمه الله : " وَصْفُ النَّصْرِ بِالْمَجِيءِ مَجَازٌ وَحَقِيقَتُهُ إِذَا وَقَعَ نَصْرُ اللَّهِ

(١) ينظر : لمسات بيانية في نصوص من التنزيل د / فاضل السامرائي ص ٩٩ .

فَمَا الْفَائِدَةُ فِي تَرْكِ الْحَقِيقَةِ وَذِكْرِ الْمَجَازِ؟ الْجَوَابُ فِيهِ إِشَارَاتٌ: إِحْدَاهَا: أَنَّ الْأُمُورَ مَرْبُوطَةٌ بِأَوْقَاتِهَا وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدَّرَ لِحُدُوثِ كُلِّ حَادِثٍ أَسْبَابًا مُعَيَّنَةً وَأَوْقَاتًا مُقَدَّرَةً يَسْتَحِيلُ فِيهَا التَّقَدُّمُ وَالتَّأَخُّرُ وَالتَّغَيُّرُ وَالتَّبَدُّلُ فَإِذَا حَضَرَ ذَلِكَ الْوَقْتُ وَجَاءَ ذَلِكَ الزَّمَانُ حَضَرَ مَعَهُ ذَلِكَ الْأَثَرُ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ [الْحِجْر: ٢١] ، وَثَانِيهَا: أَنَّ اللَّفْظَ دَلَّ عَلَى أَنَّ النَّصْرَ كَانَ كَالْمُشْتَاقِ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ ذَلِكَ النَّصْرَ كَانَ مُسْتَحِقًّا لَهُ بِحُكْمِ الْوَعْدِ". (١)

ولأنه نصر عظيم جاء بعد جهاد ولأواء جاء النصر مضافًا إلى الله (نصرالله) والنصر: الإعانة على العدو، وإضافة (نصر) إلى (الله) – عزوجل – مشعر بتعظيم هذا النصر يقول الرازي: "النَّصْرُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ [آل عِمْرَانَ: ١٢٦] فَمَا الْفَائِدَةُ فِي هَذَا التَّقْيِيدِ وَهُوَ قَوْلُهُ: نَصْرُ اللَّهِ؟ وَالْجَوَابُ مَعْنَاهُ نَصْرٌ لَا يَلِيقُ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا يَلِيقُ أَنْ يَفْعَلَهُ إِلَّا اللَّهُ أَوْ لَا يَلِيقُ إِلَّا بِحِكْمَتِهِ وَيُقَالُ: هَذَا صَنْعَةُ زَيْدٍ إِذَا كَانَ زَيْدٌ مَشْهُورًا بِإِحْكَامِ الصَّنْعَةِ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ تعظيم حال تلك الصنعة، فكذا هاهنا، أَوْ نَصْرُ اللَّهِ لِأَنَّهُ إِجَابَةٌ لِدُعَائِهِمْ: مَتى نَصْرُ اللَّهِ فَيَقُولُ هَذَا الَّذِي سَأَلْتُمُوهُ." (٢)

والنصر في القرآن الكريم قد يأتي مع لفظ الجلالة (الله) أومع لفظ (الرب)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ البقرة: ٢١٤

(١) مفاتيح الغيب . الفخر الرازي . ج ٣٢ص ٣٣٦ .

(٢) السابق والصفحة .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ الصف: ١٣

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ العنكبوت: ١٠

فلفظ الجلالة " الله " اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية المنعوت بنعوت الربوبية المنفرد بالوجود الحقيقى و"الله " أكبر الأسماء وأجمعها للمعانى ولذلك كان الاسم المهيمن فى القرآن الكريم [١] وهو الغالب مع النصر لما فيه من معاني الغلبة والقهر والجلال والهيبة والعظمة فهو نصر عن قدرة وعزة وسطوة فلذلك كان من المناسب أن يأتي النصر مضافا إلى الله – عزوجل –

ومعنى " الرب " هو السيد والمالك والمتصرف فى مخلوقاته بإرادته [٢] وسبب مجيء النصر مع الربوبية في آية العنكبوت أَنَّ الرَّبَّ اسْمٌ مَدْلُولُهُ الْخَاصُّ بِهِ الشَّفَقَةُ وَالرَّحْمَةُ، فناسب أن يذكر مع عذاب الله [٣] وأرى أن مجيء النصر مع الربوبية هنا ناظر إلى نهاية الآية فالله – عز وجل – يعلم حال هؤلاء المنافقين، ومطلع على سرائرهم ويعلم كذبهم في قولهم (إنا كنا معكم) وهذه المعاني

(١) ينظر : المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ، أبو حامد الغزالى ص ٦٠ ، ت٠ أ/محمد عثمان الخشت ، القاهرة ط ١٩٨٥م ٠
والأسماء والصفات ، الإمام البيهقى ص ٣٤ ، دار الكتب العلمية ــ بيروت ، والمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم أ/ محمد فؤاد عبد القاقى ص٣٩ وما بعدها ٠

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم أ/ محمد فؤاد عبد الباقى ص٢٨٥ وما بعدها٠

(٣) مفاتيح الغيب ج ٢٥ ص ٣٤ .

يناسبها مدلول الربوبية . قال الراغبُ: "الربُّ في الأصلِ التربيـــةُ، وهـــو إنشـــاءُ الشَّيءِ حالًا فحالًا إلى حدِّ التَّمام. (١)

ففي سورة النصر تتناسب كل الكلمات في تبيان عظمة هذا النصر وقوتـــه وسطوته فعبر عنه بالمجيء وأضيف إلى لفظ الجلالة (الله) تشريفًا وتكريمًا لهـــذا النصر، ولفتًا إلى جلال قدرته وعظيم سطوته ، ولم لا وهو – سبحانه – الـــذي أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده ؟ فالنظم يقتضي جلال الألوهية ، ولهذه الجملة (جاء نصرالله) ظلال وإيحاءات فالنصر نصر الله، والمسلمون ماهم إلا أسباب وفقها الله – عز وجل – لهذا النصر وأجرى النصر علـــى أيـــديهم ، وأيضًا– دلت على أن النصر موجود لكن له وقت معلوم فإذا تأخر النصر فلأنكـــم خالفتم أسبابه وسننه .، لا أنه غير موجود .

وأل في (الفتح) للعهد وقد اتفقت أقوال المفسرين من السلف ومـــن بعـــدهم على أن الفتح المذكور في هذه السورة هو فتح مكة إلا رواية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس هو فتح المدائن والقصور، يعنون الحصون (٢)، فالفتح هو فـــتح مكة، و"أل" دلت على كمال هذا الفتح ، فكأن كل ماعداه من الفتوحـــات لا تـــذكر بجانب هذا الفتح العظيم، فهو وحده المستحق أن يسمى فتحًا ، فهذا الفتح هو " الْفَتْحِ الْأَعْظَمِ الَّذِي أَعَزَّ اللَّهُ بِهِ دِينَهُ وَرَسُولَهُ، وَجُنْدَهُ وَحِزْبَهُ الْأَمِينَ، وَاسْتَنْقَذَ بِهِ بَلَدَهُ وَبَيْتَهُ الَّذِي جَعَلَهُ هُدًى لِلْعَالَمِينَ مِنْ أَيْدِي الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ، وَهُوَ الْفَتْحُ الَّذِي

(١) المفردات في غريب القرآن . ص ٣٣٦

(٢) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٥٨٨ .

اسْتَبْشَرَ بِهِ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَضَرَبَتْ أَطْنَابُ عِزِّهِ عَلَى مَنَاكِبِ الْجَوْزَاءِ، وَدَخَلَ النَّاسُ بِهِ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، وَأَشْرَقَ بِهِ وَجْهُ الْأَرْضِ ضِيَاءً وَابْتِهَاجًا". (١)

ومجيء (الفتح) بعد (النصر) من قبيل ذكر الخاص بعد العام، فنصر الله يشمل جميع الفتوحات والانتصارات ، فعطف عليه (فتح مكة) تعظيماً لشأن هذا الفتح واعتناءً بأمره وإظهارًا لعلو شأنه، فهو فرد في بابه، ونصر ليس كأي نصر؛ لذلك خصص بالذكر.

وجاء النصر مقدمًا على الفتح؛ لأن النصر هو الإعانة على تحصيل المطلوب ، والفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان منغلقًا ، وظاهر أن النصر كالسبب في الفتح ، فلهذا بدأ بذكر النصر وعطف الفتح عليه(٢)، فالفتح وجه عظيم من وجوه النصر، ولذلك كان من المناسب تقديم النصر على الفتح، ولم يقدم ذكر الفتح على النصر إلا في سورة الفتح : قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ ﴾ الفتح: ١ – ٣

وهذا في أتم المناسبة ؛ لأن السورة شغلت بصلح الحديبية والذي سمي فتحًا مبينًا قال ابن مسعود :إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية، وإنما سمي فتحًا ؛ لأنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس، واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العمل النافع والإيمان(٣) .فلذلك

(١) زاد المعاد في خير العباد . ابن القيم ج ٣ ص ٣٤٧. مؤسسة الرسالة – بيروت ط السابعة والعشرون ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤م.

(٢) مفاتيح الغيب ج٣٢ ص ٣٣٦.

(٣) ينظر : تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) ج٧ ص ٣٠١ وما بعدها دار الكتب العلمية، – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٩ هـ

كان من المناسب تقديم الفتح على النصر، بل افتتاح السورة بالحديث عنه وتسمية السورة باسم (الفتح) .

وكأن الفتح كان فتحًا للقلوب وتنبيهًا للعقول ، ولذلك كان من المناسب أن تأتي هذه الجملة : (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً) بعد النصر والفتح، فهما المهيئان لهذا الدخول ، بل إن غاية كل نصر وفتح في الإسلام ، هو هداية الناس وتمكينهم من الدخول في دين الله طواعية غير مكرهين .

والخطاب للنبي – صلى الله عليه وسلم – وقد أجاز المفسرون أن تكون الرؤية علمية أو بصرية [١]، وأرجح أن تكون الرؤية بصرية ، فقد أخرج البخاري عن عمرو بن سلمة قال: «لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة، فيقولون دعوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبيء»[٢] .

فقد كان فتح مكة يخالج نفوس العرب كلهم ، فالمسلمون كانوا يرجونه ويعلمون ما أشار به القرآن من الوعد به، وأهل مكة يتوقعونه، وبقية العرب ينتظرون ماذا يكون الحال بين أهل مكة وبين النبيء – صلى الله عليه وسلم – ويتلومون بدخولهم في الإسلام فتح مكة يقولون: إن ظهر محمد على قومه فهو نبيء[٣] وقد رأى النبي – صلى الله عليه وسلم – وفود العرب تأتي فتسلم بين يديه في سنة تسع للهجرة ، كوفد ثقيف ووفد بني عبد القيس ووفد بني حنيفة

(١) ينظر : التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٥٨٨ وإعراب القرآن وبيانه . محي الدين الدرويش ج ١٠ ص ٦٠٦ دار الإرشاد ــ دمشق . بدون.

(٢) صحيح البخاري ج٥ ص ١٩١. رقم ٤٣٠٢ دار الشعب – القاهرة ط الأولى ، ١٤٠٧ – ١٩٨٧.

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٥٨٨.

ووفد أهل نجران ووفد بني عامر ووفد طيء وغيرهم[١]، فلا وجه لحمل الرؤية على أنها علمية ، خاصة أن رؤية الناس تدخل في دين الإسلام هي منية رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وغاية جهاده وثمرة كفاحه ، فلم يكن القصد في أي منعطف من منعطفات حياته – صلى الله عليه وسلم – إلى فخامة السلطان أو ضم الأراضي والبلدان ، وإنما غاية النصر والفتح هذه الجملة التي هي آخر مراحل النصر، وقد انتقل النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى جوار ربه وليس في بيته دينار ولا درهم .

وما دخلت البشرية كلها في الإسلام ، ولذلك فالتعبير بلفظ (الناس) في القرآن الكريم قد يأتي للاستغراق العرفي المنظور فيه إلى استغراق جميع الأفراد في مكان أو زمان تنزيلًا لهم منزلة الكل وهذا بمعنى الكثرة لا غير.[٢] وأرى أن كلمة (الناس) هنا ناظرة – أيضًا– إلى بيان معنى العالمية في هذا الدين ، وأن البشرية بكل ثقافاتها وألوانها وأجناسها تحتاج إلى هذا الدين وشرعته ومنهاجه ، إذا أرادت أن تكون من عالم الأناسي لا من عالم الحيوان ؛ لأن من وجد فيه معنى من معاني الإنسانية لن يملك إلا أن يمتثل ويذعن لهذه الكمالات الإيمانية الكونية التي تسعى لها كل فطرة سوية ، ولا يبعد إذا قلنا إن لفظ "الناس" يراد بهم المؤمنون ويكون الكلام من قبيل المجاز المرسل لعلاقة العموم وسر بلاغته الإيماء " إلى أن المؤمنين هم الناس الذين ينبغي أن يكونوا أناسًا ، وقد وصف القرآن الكريم غير المؤمنين ، بأنهم كالأنعام أو أضل ، ونفى عنهم

(١) ينظر : البداية والنهاية . ابن كثير ج٥ ص ٣٥ . دار إحياء التراث العربي ط الاولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

(٢) التحرير والتنوير ج ١ ص ٥٩٣.

السمع ، والبصر ، والفؤاد ؛ لأنهم لا ينتفعون الانتفاع الحقيقي بشيء من ذلك "[1]

واستوقفني في هذه الجملة أمران أعتقد أنهما من خصائص الإسلام :

الأمر الأول : الفعل المضارع (يدخلون) فلم يأت في القرآن الكريم هذا الفعل ليدل على الدخول في اليهودية ولا النصرانية وإنما هو الإسلام ، وما ذاك إلا دلالة على أن الإسلام له مكوناته ، وأساسياته التي تسربل المسلم في كل حالاته وأطواره ، فيستظل به ويعيش هنيئًا في ظل أحكام الإسلام وتكاليفه ومبادئه ، فالدخول في الدين استعارة مكنية شبه فيها الإسلام بالبيت الذي يتكون من مكونات كثيرة لا غنى فيها عن أي أجزائه، وكذلك الإسلام يؤخذ كله، فلا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض ، والبيت فيه الوقاية والحماية وكذلك الإسلام ، والبيت فيه الحياة والاستقرار والأمن وكذلك الإسلام ، إن هذا التجوز الاستعاري مشعر – أيضًا – بأن الدخول في الإسلام تغيير وانتقال من حال إلى حال ، ويأتي حرف الوعاء (في) ليأخذ المسلم إلى أعماق هذا الدين ولبه، فلا يكتفى بالسطحية ولا المظهرية، وإنما الغوص فيه والأخذ به ظاهرًا وباطنًا، وهذا المعنى مناسب لمعاني الدخول .

الأمر الثاني : هو كلمة " دين " وإضافتها للفظ الجلالة " الله " وكلمة " الدين " مناسبة للسياق القرآني فالنصر والفتح والتمكين كان جزاء الفئة المؤمنة وهذا المعنى يناسبه كلمة " دين " لأنها مأخوذة من الجزاء، قال الجوهري : "والدينُ: الجزاءُ والمكافأةُ. يقال: دانَهُ ديناً، أي جازاه. يقال: " كما تَدينُ تُدانُ "، أي كما تُجازي تُجازى، أي تُجازى بفعلك وبحسب ما عملت. وقوله تعالى: (أَءِنَّا

(١) من أسرار البيان النبوي . د / أحمد محمد على . ص ٧٧ . دار الصحوة . القاهرة . ط أولى . ١٤٠٦ هـ.

لَمَدينونَ) الصافات (٥٣) أي مجزيُّون محاسَبون. ومنه الـدَيَّانُ فـي صـفة الله تعالى".[١] ولا يضاف أي دين إلى " الله " عزوجل إلا دين الإسلام تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا لهذا الدين ، ودلالة على أنه الدين الحق المهيمن الذي لا يقبل سـواه ، قَالَ تَعَالَى:﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران: ١٩

وكان من المناسب أن يأتي الدين مضافا لله – سبحانه – وليس إلى الرب ؛ وذلك تناسبا مع قوله تعالى (نصر الله)، فنصر الله لا يكون إلا لدين الله ، ويعلـل الرازي لذلك فيقول : " وإنما قال : فِي دِينِ اللَّهِ ولم يقـل : فـي ديـن الـرب ، ولا سائر الأسماء لوجهين الأول : أن هذا الاسم أعظم الأسماء لدلالته على الذات والصفات ، فكأنه يقول : هذا الدين إن لم يكن له خصلة سوى أنه دين اللّه فإنـه يكون واجب القبول والثاني : لو قال : دين الرب لكان يشعر ذلك بأن هذا الـدين إنما يجب عليك قبوله لأنه رباك ، وأحسن إليك وحينئذ تكن طاعتك له معللة بطلب النفع ، فلا يكون الإخلاص حاصلًا ، فكأنه يقول : أخلص الخدمة بمجرد أني إلـه لا لنفع يعود إليك."[٢] ، ويضاف إلى ذلك تمام المناسـبة الحاصـلة بـين جـلال الألوهية ومعنى الجزاء في كلمة " دين " .

و(أفواجًا) بيان لحال دخولهم في الإسلام فقد جـاءوا جماعـات جماعـات، يعلنون إسلامهم بين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومجيء (أفواجًا) أنسب في هذا السياق من (زمرًا)، وكلاهما يفسر بالجماعات إلا أن آية الزمـر يناسبها الصوت الكائن في الزَمْر، وقد فرق أبـوهلال العسـكري بـين الفـوج

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية . أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي ج٥ ص ٢١١٨ ت . د/ أحمد عبد الغفور عطار
(دار العلم للملايين – بيروت ط الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م

(٢) مفاتيح الغيب ج٣٢ ص ٣٤١ .

والزمرة، فذكر أن الفوج الجماعة الكثيرة ، والزمرة جمَاعَة لَهَا صَوت لَا يفهم، وأصله من الزمار، وَهُوَ صَوت الْأُنْثَى من النعام، وَمِنْه قيل الزمرة[1]، فالزمر من زَمَرَ يَزْمِرُ ويَزْمُرُ زَمْراً وزَمِيراً وزَمَراناً أي : غَنَّى فِي القَصَبِ، ويُقَالُ لِلَّذِي يُغَنِّي الزّامِرُ والزَّمَّارُ، وَيُقَالُ لِلْقَصَبَةِ الَّتِي يُزْمَرُ بِهَا زَمَّارَةٌ،[2] وهذا المعنى يناسب السوق الوارد في آية الزمر وما يتبعه من حركة وأصوات ، أما هنا فالمعنى ناظر إلى الكثرة وقدوم الناس على النبي – صلى الله عليه وسلم – جماعات جماعات، فناسبه لفظ أفواجًا الدال بمادته وصيغته على الكثرة، فهو من جموع الكثرة ، وهكذا كل لفظ في القرآن الكريم قار في مكانه ، مناسب لسياقه ، لا يقوم أي مرادف مقامه، وهذا سر آخر من أسرار إعجازه .

وبهذه الكلمة (أفواجًا) تكون الجملة الشرطية قد تمت، واستعد النبي – صلى الله عليه وسلم – لتلقي التكليف الوارد في جواب الشرط وهو قوله تعالى : (فسبح بحمد ربك واستغفره)

وقد أمر النبي – صلى الله عليه وسلم– في هذا الجواب بالتسبيح والحمد والاستغفار ومعنى (سبح) أي قل : سبحان الله "، و " سبَح " في أصل اللغة يدور حول معني الدخول في الشئ والتعمق فيه ، يقال : " سَبَحْتُ في الأرض " إذا تباعدتُ فيها وفي قوله تعالى :﴿ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ ﴾ النازعات: ٣

أي النجوم التي تسبح في الفلك أي تذهب فيها " وسَبَحَ في الكلام " إذا أكثر فيه التسبيح، وهو قول " سبحان الله " [3] ، فكأن الذي يسبِّح " الله " يستغرق في

(١) الفروق اللغوية . أبوهلال العسكري ص ٢٧٧ دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.بدون .

(٢) لسان العرب (زمر)

(٣) السابق " سبح " .

إثبات كل صفات الجلال، وينفي عن ذاته سبحانه كل مالا ينبغي له من مثيل أو شريك أو ند أو ضد ، وكل نقص لا يليق به، والتسبيح هنا مقرون بحمد الله كما أفادت باء المصاحبة، والحمد هو ثناء على المحمود على جهة التعظيم، ويكون عن يد وغير يد [1] والاستغفار هو طلب المغفرة من الله – عزوجل- ومقتضى الظاهر أن يقول: فسبح بحمده، لتقدم اسم الجلالة في قوله: إذا جاء نصر الله فعدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر ، وحسن ذلك "لما في صفة (رب) وإضافتها إلى ضمير المخاطب من الإيماء إلى أن من حكمة ذلك النصر والفتح ودخول الناس في الإسلام نعمة أنعم الله بها عليه إذ حصل هذا الخير الجليل بواسطته فذلك تكريم له وعناية به وهو شأن تلطف الرب بالمربوب، لأن معناه السيادة المرفوقة بالرفق والإبلاغ إلى الكمال"[2]، وفي ذكر (الرب) تذكير بمقام الربوبية الداعي لكمال تسبيحه – تعالى – وتحميده ، ولأن الكلام قد طال "فحسن إيقاع الظاهر موضع المضمر؛ كيلا يبقى الذهن متشاغلًا بسبب ما يعود عليه اللفظ فيفوته ما شرع فيه"[3]، وماشرع فيه النظم هوالأمر بالتسبيح والتحميد والاستغفار.

وكان من تمام التناسب تقديم التسبيح والتحميد على الاستغفار ؛ لأن دعاء العبادة مقدم على دعاء الطلب ، فالعبد عندما يقدم بين يدي دعائه ذكر لله – عز وجل- فيعظم ربه ويدخل على الملك – سبحانه – دخول من يقدره حق قدره كان ذلك أدعى للقبول والإجابة ، خاصة أن دعاء العبادة اشتمل على تنزيه

(١) ينظر : السابق (حمد) والمفردات في غريب القرآن ص ٢٥٦.

(٢) التحرير والتنوير ج٣٠ ص ٥٩٦.

(٣) البرهان في علوم القرآن ج٢ ص ٥٠٢ الزركشي.ت.أ/ محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية طبعة : الأولى ١٣٧٦ هـ –

الله من كل نقص، وذلك دلالة التسبيح ، واشتمل على حمد الله الذي هو إثبات لكمال الله – عزوجل – فاستغرق التسبيح والتحميد مجامع المدح والثناء لله رب العالمين ، قال الطاهر ابن عاشور : "وفي تقديم الأمر بالتسبيح والحمد على الأمر بالاستغفار تمهيد لإجابة استغفاره على عادة العرب في تقديم الثناء قبل سؤال الحاجة كما قال ابن أبي الصلت:

إذا أثنى عليك المرء يوما كفاه عن تعرضه الثناء" (١)

وقد يقول قائل : إن جملة الشرط قد اشتملت على النعم من نصر وفتح ودخول في الإسلام فكان التناسب الظاهري يقتضي مجيء الجواب بالأمر بالشكر والحمد فحسب ، لكن عند التدبر والتأمل نجد أن الجواب في غاية التناسب، فالتسبيح الذي هو تنزيه الله – عز وجل – لما قد يكون داخل النفوس من استبطاء للنصر وظن بالله ، كما حكى القرآن الكريم «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ» قال الرازي موضحًا المناسبة بين النصر والتسبيح : "اعْلَمْ أَنَّ تَأْخِيرَ النَّصْرِ سِنِينَ مَعَ أَنَّ مُحَمَّدًا كَانَ عَلَى الْحَقِّ مِمَّا يَثْقُلُ عَلَى الْقَلْبِ وَيَقَعُ فِي الْقَلْبِ أَنِّي إِذَا كُنْتُ عَلَى الْحَقِّ فَلِمَ لَا تَنْصُرُنِي وَلِمَ سَلَّطْتَ هَؤُلَاءِ الْكَفَرَةَ عَلَيَّ فَلِأَجْلِ الِاعْتِذَارِ عَنْ هَذَا الْخَاطِرِ أُمِرَ بِالتَّسْبِيحِ " (٢) والحمد الذي هو أعم من الشكر مناسب لنعم الله العظيمة التي وردت في جملة الشرط ، من نصر وفتح وتمكين للإسلام والمسلمين، وهذا يناسبه الحمد حتى يبلغ الحمد منتهاه ، والاستغفار مناسب لجملة الشرط ، ففي

(١) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٥٩٤. والبيت في ديوان أمية بن أبي الصلت ص ١٩ . ت د/ سجيع جميل الجبيلي . دار صادر بيروت ط أولى ١٩٩٨م .

(٢) مفاتيح الغيب ج ٣٢ ص٣٤١.

حالة النصر قد يصيب المنتصرَ فخار وزهو، فينطلق لسانه ببيان البطولات، فينسى الله – عزوجل – وهنا يكون الاستغفار ، خاصة أن مطلع السورة (جاء نصر الله) فقطع النفس عن هذه الوساوس ، وفي الاستغفار اعتراف بكمال نعم الله – عز وجل – وأن العبد أمام هذه النعم مقصر في حق الله – سبحانه – فيستغفره لأجل هذا التقصير ، وفي الاستغفار مع النصر تذكير للنبي – صلى الله عليه وسلم – وهو المنتصر على من آذوه وأخرجوه بالعفو والتجاوز عن المغلوبين يقول الرازي : "والاستغفار إشارة إلى الشفقة على خلق الله". (١)

فالنبي – صلى الله عليه وسلم – لم يؤمر بالاستغفار لذنب اقترفه ، بل لأن في الاستغفار – أيضًا – هضمًا للنفس وإعلانًا للافتقار إلى الله – عز وجل – خاصة بعد عمل الطاعات التي قد تكون مظنة العجب " وَأَرْبَابُ الْعَزَائِمِ وَالْبَصَائِرِ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ اسْتِغْفَارًا عُقَيْبَ الطَّاعَاتِ، لِشُهُودِهِمْ تَقْصِيرَهُمْ فِيهَا، وَتَرْكَ الْقِيَامِ لِلَّهِ بِهَا كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ، وَأَنَّهُ لَوْلَا الْأَمْرُ لَمَا أَقْدَمَ أَحَدُهُمْ عَلَى مَثَلِ هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ ، وَلَا رَضِيَهَا لِسَيِّدِهِ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى وَفْدَهُ وَحُجَّاجَ بَيْتِهِ بِأَنْ يَسْتَغْفِرُوهُ عُقَيْبَ إِفَاضَتِهِمْ مِنْ عَرَفَاتٍ ، وَهُوَ أَجَلُّ الْمَوَاقِفِ وَأَفْضَلُهَا ، فَقَالَ : {فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ١٩٨ – ١٩٩] "(٢) و شرع الاستغفار بعد الصلاة ، فالاستغفار مقام تعبدي يدخل به العبد على ربه فلا يرى لنفسه حالًا ولا مقامًا ، فالنبي – صلى الله عليه وسلم – الذي جاهد في الله – عزوجل – حق الجهاد

(١) مفاتيح الغيب ج ٣٢ ص ٣٤٥ .

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين . ابن القيم ج١ ص ١٩٢ ت . أ/محمد المعتصم بالله البغدادي دار الكتاب العربي – بيروت ط الثالثة، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م

وأوذي في سبيل الله وترك أحب البلاد إلى قلبه مكرها وهو المعصوم الذي قد غفر الله له ذنوبه يؤمر بالاستغفار، وهو القائل – صلى الله عليه وسلم – «لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ»[1] وهذه رسالة إلى كل مسلم فهو مع اجتهاده في عبادته يرجو رحمة ربه فيستغفره ويتوب إليه .

وبذلك يظهر إبداع التناسب بين الشرط (جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا) وبين الجواب (فسبح بحمد ربك واستغفره)

والسؤال الذي يلح على ذهني هو كيف يؤمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بالتسبيح والتحميد والاستغفار وحياته كانت كل ذلك ؟!

فقد تواترت الأحاديث والآثار التي تدل على أن حياته – صلى الله عليه وسلم – كلها ذكر وشكر وحمد لله وهو القائل – صلى الله عليه وسلم – : (أفلا أكون عبدًا شكورًا)

قال ابن القيم « كان النبي صلى اللّه عليه وسلم أكمل الخلق ذكرا للّه ــ عز وجل ــ بل كان كلامه كله في ذكر اللّه وما والاه ، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرًا منه للّه ، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده ذكرًا منه له ، وثناؤه عليه بآلائه وتمجيده وتحميده وتسبيحه ذكرًا منه له ، وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكرًا منه له وسكوته وصمته ذكرًا منه له بقلبه فكان ذاكرًا للّه في كل أحيانه وعلى جميع أحواله ، وكان ذكره للّه يجري مع أنفاسه قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه ، وفي مشيته وركوبه ، وسيره ونزوله ، وظعنه وإقامته." [2] فوقوع التسبيح والتحميد والاستغفار منه – صلى

(١) صحيح البخاري ج ٨ ص ٩٨ رقم ٦٤٦٣

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد . ابن قيم الجوزية ج ٢ ص ٣٢٢ ..

الله عليه وسلم – عند النصر والفتح والتمكين لدين الله أمر لا محالة واقع فقد كان – صلى الله عليه وسلم – يشكره في الضراء، أيعقل ألا يشكره في السراء ؟! ولذلك تأول الطاهر ابن عاشور الأمر إلى أنه من باب التذكير أي تذكيره – صلى الله عليه وسلم – بتسبيح خاص لم يحصل من قبل في تسبيحاته وباستغفار خاص لم يحصل من قبل في استغفاره ، وجوز – رحمه الله – أن يكون التسبيح المأمور به تسبيح ابتهاج وتعجب من تيسير الله تعالى له ما لا يخطر ببال أحد أن يتم له ذلك، فإن سبحان الله ونحوه يستعمل في التعجب (١)، ولا يروق لي ذلك، بل أرجح أن هذه الأوامر الواردة في جواب الشرط تكشف عن جانب مشرق في ديننا الحنيف الذي هو دين الإسلام ورسالة السلام للدنيا كلها ، ففي الوقت الذي نرى فيه المنتصرين ينكلون بالمهزومين فيذبحون الأبناء والنساء قبل الرجال يأتي القرآن الكريم فيربي المسلمين على أن النصر نصر لله، لا لدنيا، فلا تأخذنا نشوة النصر ولذة الانتقام والتشفي ، وفي هذه اللحظة التى ترتفع فيها الأعناق مزهوة بالنصر تنخفض أعناق المسلم مسبحة ومستغفرة لله رب العالمين .

وقد تحمل هذه الأوامر على الإكثار منها لتهيئة النبي – صلى الله عليه وسلم – للقاء الله – عزوجل ؛ يقول البقاعي : "واعلم أن السورة إشارة إلى وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحث على الاستغفار الذي هو الأمان الثاني، ومن شأنه أن تختم به الأعمال والمجالس بعد ما أشار إليه إعلامها بظهور الدين على الدين كله". (٢)

ولذلك فهم بعض الصحابة أن السورة نعي لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – والدليل على ذلك أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يكثر في آخر

(١) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٥٩٣.

(٢) نظم الدرر ج ٢٢ ص ٣٢١.

حياته من تسبيح الله وتحميده واستغفاره فقد رَوَتْ أم المؤمنين عَائِشَةُ – رضي الله عنها – أن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ كان يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ،(١)

وقد جاء بعد هذه الأوامر ما يقويها ويحث عليها ويرغب فيها، وهو قوله تعالى : (إنه كان توابًا) ولو جاء الأمر على ظاهره لقيل : إنه كان غفارًا كما قال الله تعالى :

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ نوح: ١٠

وقد علل الطاهر ابن عاشور لذلك بأمرين :

الأول : أن في ذلك تأدبًا مع الله –عزوجل– .

الثاني : أنه أنسب من الناحية الصوتية ، فوصف (تواب) أشد ملاءمة لإقامة الفاصلة مع فاصلة أفواجًا ؛ لأن حرف الجيم وحرف الباء كليهما حرف من الحروف الموصوفة بالشدة، بخلاف حرف الراء فهو من الحروف التي صفتها بين الشدة والرخوة. (٢)

وعلل البقاعي ذلك بأن في الآية احتباك قال : "وقد علم أن الآية الأخيرة من الاحتباك: دل بالأمر بالاستغفار على الأمر بالتوبة ، وبتعليل الأمر بالتوبة على تعليل الأمر بالاستغفار". (٣)

وأرى أن الآية لا احتباك فيها، وأن الأنسب لختام آخر سورة أنزلت هو هذا الختام وتعليل الطاهر ابن عاشور لا يشفي الصدور ، فالعبد حتى ولو كان في مقام النبوة يحتاج إلى التوبة ؛ لأنها مقام من مقامات العابدين إذ فيها اعتراف

(١) صحيح مسلم ج٢ ص ٥٠ رقم ١١١٦.
(٢) التحرير والتنوير ج٣٠ ص ٥٩٨.
(٣) نظم الدرر ج ٢٢ ص ٣٢١.

بالتقصير والعجز أمام عطاءات الله ومنحه ؛ " فالتوبة مقام من مقامات العبودية، والخضوع للذات الألوهية، ولذا وصف الأتقياء بأنهم التوابون ، لأن التوبة تنبعث من إحساس بعلو المقام الإلهي، وتفتيش النفس والبعد عن الغرور، والشعور بالتقصير نحو الذات العلية ، مهما تكن الأعمال الصالحة ، فالعابد يستصغر ما يفعل في جنب اللَّه مهما يكن كبيرًا، ومحمد صلى اللَّه تعالى عليه وسلم كان بمقتضى دين الفطرة، ومعالجة أحوال الناس، والجهاد في دعوة الحق، معرضًا لأن يخطئ لَا أن يذنب، ولفرط طاعته، واستقامة نفسه يحس بأن خطأه كالذنب، والرضا به لَا يتفق مع مقامه من اللَّه تعالى الذي يخاطبه ، كما أن التوبة خلة ثابتة من خلال المؤمنين ؛ لأنها في ذاتها تجديد للإيمان، وتذكير بالطاعة المستمرة، وتوبة محمد سيد البشر دعوة للمؤمنين لأن يتوبوا كما قال تعالى: (. . . وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (النور ٣١) والنفوس كلما علت أحست بأن الهفوات كأنها ذنوب ، فتلجأ تائبة بالإنابة إلى ربها، وهذا ما يقوله العلماء: حسنات الأبرار سيئات المقربين، وبهذا يتبين أن التوبة والغفران والإحساس بالخطأ كأنه ذنب سمات الأبرار والعلو في مقام إدراك معنى الربوبية والعبودية، وليس نقصًا في الذات النبوية ذات أفضل البشر"[1] .

فالتَّوْبَةُ كَمَا أَنَّهَا مِنْ أَوَّلِ الْمَقَامَاتِ فَهِيَ آخِرُهَا أَيْضًا، بَلْ هِيَ فِي كُلِّ مَقَامٍ مُسْتَصْحَبَةٌ، وَلِهَذَا جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى آخِرَ مَقَامَاتِ خَاصَّتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَهِيَ آخِرُ الْغَزَوَاتِ الَّتِي قَطَعُوا فِيهَا الْأَوْدِيَةَ وَالْبِدَايَاتِ وَالْأَحْوَالَ وَالنِّهَايَاتِ {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة:

(١) زهرة التفاسير . الشيخ / محمد أبوزهرة ج ٧ ص ٣٤٦٦ وما بعدها .

١١٧] فَجَعَلَ التَّوْبَةَ أَوَّلَ أَمْرِهِمْ وَآخِرَهُ [١] من أجل ذلك كله كان من المناسب أن تختم السورة بلفظ(توابًا) وبذلك يظهر عمق التناسب الداخلي بين كافة كلمات السورة وجملها وأساليبها ، ووضح بالدليل أن السورة كلمة واحدة خرجت في نفس واحد وكل ذلك في تناسب واتساق وإعجاز، يقول الشيخ محمد عبدالله دراز – رحمه الله– : " لعمرى لئن كانت للقرآن فى بلاغة تعبيره معجزات وفى أساليب ترتيبه معجزات ، وفى نبوءاته الصادقة معجزات وفى تشريعاته الخالدة معجزات وفى كل ما استخدم من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات لعمرى إنه فى ترتيب آيه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات" [٢] وهذا ما وضح جليًا في سورة النصر ، وينسحب ذلك على كل سور القرآن الكريم ٠

(١) مدارج السالكين. ابن القيم ج١ ص ١٩٣ .

(٢) النبأ العظيم . نظرات جديدة في القرآن . د/ محمد عبدالله دراز ص ٢١١. دار الثقافة . الدوحة . ط ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م.

الفصل الثاني
التناسب في سياق السورة الخارجي

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :

تمهيد : ترتيب السور بين التوقيف والاجتهاد.

المبحث الأول : تناسب السورة في سياقها المصحفي .

المبحث الثاني : . تناسب السورة في سياقها القرآني العام .

المبحث الثالث : تناسب السورة في سياقها النزولي .

تمهيد

ترتيب السور بين التوقيف والاجتهاد

يقصد من هذا الفصل بيان أوجه الاعتلاق والترابط بين سورة النصر كوحدة موضوعية متكاملة فى ذاتها وبين الإطار القرآني الكلى الدارجة فيه ، وهذا يوضح لحمة التناسب القوية بين كل سور القرآن الكريم قاطبة ، ويظهر وجهًا جليًا من وجوه الإعجاز البياني للقرآن الكريم .

والملاحظ أن هناك اختلافًا بين ترتيب السور القرآنية فى النزول وترتيبها فى المصحف ، ومنشأ هذا الاختلاف هو اختلاف الهدف المقصود من كلا الترتيبين فهو فى ترتيبه النزولى "منهج لتأسيس دعوة ، وأسلوب إقناع بعقيدة ، وطريق تبشير وإنذار ، ودحض كامل لمنطق الإلحاد المريض ، وهو فى ترتيبه المصحفى أسلوب حياة وبناء حضارة ، ودستور للعالم كله، محيط بكل صغيرة وكبيرة من حاجاته ومطالبه "[1] وكلا الترتيبن في تمام التناسب المعجز ، فـ" القرآن حاز أعلى البلاغة في إنزاله مطابقا لما تقتضيه الأحوال بحسب الأزمان ، ثم رتب على أعلى وجوه البلاغة بحسب ما تقتضيه المفاهيم من المقال ، كما تشاهده من هذا الكتاب البديع البعيد المنال" [2] لأن كلا الترتيبين من الله – عز وجل – ولذلك فالقول بوجود المناسبات بين السور يعتمد على القول بأن ترتيب السور في المصحف توقيفي لا اجتهادي ، ولذلك كان من تمام البحث بيان ترتيب السور أهو توقيفي أم اجتهادي ؟

---

(١) مقدمة تحقيق كتاب تناسق الدرر فى تناسب السور للإمام السيوطى ص ١٣ وما بعدها ٠ ت ٠د/ عبد القادر أحمد عطا٠ دار الكتب العلمية ــ بيروت ط أولى ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م.

(٢) نظم الدرر:ج٥ ص١٧٠.

وقد اختلف أهل العلم في ذلك والراجح هو القول بالتوقيف ، وبذلك قال السيوطي والزركشي وابن حجر وغيرهم ،وقد ناقش الإمام محمد أبو زهرة أقوال العلماء في ذلك ثم انتهي إلى قوله :" ننتهي من هذا إلى أنَّ ترتيب السور كترتيب الآيات كان بوحي من الله العليّ الحكيم"(١)

"فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– فمن قدم سورة أو أخَّرها فقد أفسد نظم القرآن".(٢) ومما يقوي القول بالتوقيف أسرار التناسب ووجوه الاعتلاق والتلاقي التي يتحسسها المتدبر في كتاب الله – عز وجل – تلك الأسرار التي تنتهي إلى حد الإعجاز ، مع ملاحظة نزوله منجمًا في زمن يتجاوز العشرين عامًا وارتباط السور والآيات بوقائع وأحداث مغايرة .

وهذا النوع من التناسب أدق وأغمض من التناسب الذي يدور في فلك الآيات ؛ لأن دائرة هذا التناسب تتسع إلى النظر في القرآن الكريم كله ، وقد نبه الرافعي إلى ذلك فقال : "وَبِالْجُمْلَةِ.. فَإِن هَذَا الإعجاز فِي مَعَانِي الْقُرْآن وارتباطها أَمر لَا ريب فِيهِ، وَهُوَ أبلغ فِي مَعْنَاهُ الإلهي إِذا انْتَبَهت إِلَى أَن السُّور لم تنزل على هَذَا التَّرْتِيب، فَكَانَ من الأحرى ألاَّ تلتئم، وألاَّ يُنَاسب بَعْضهَا بَعْضًا، وَأَن تذْهب آياتها فِي الْخلاف كلَّ مَذْهَب.. وَلكنه روح من أَمر الله.. تفرق معجزاً، فَلَمَّا

(١) المعجزة الكبرى القرآن . د/ محمد أبوزهرة ص ٣٤ . دار الفكر العربي . بدون . وينظر : الإتقان في علوم القرآن ج١ ص ٦٢ وما بعدها ، والبرهان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٥٩. وفتح الباري ج٩ ص ٤٢ وما بعدها .

(٢) أسرار ترتيب القرآن . السيوطي ص ٥ . دار الفضيلة . بدون .

اجْتمع، اجْتمع لَهُ إعجاز آخر ليتذكر بِهِ أولو الْأَلْبَاب"[1].

فالقرآن الكريم على كثرة السور وتنوع أغراضها ومقاصدها وطولها وقصرها ، لا يفتقد أبدًا المناسبة الجامعة والترسل الدقيق والترتيب العجيب ، فكل سورة بينها وبين ما قبلها وما بعدها نسب قراب وكل سور القرآن الكريم ترد إلى فاتحة الكتاب إلى غير ذلك من وجوه التناسب الخارجية .

وسوف نبين وجوه التناسب الجامعة بين سورة النصر وغيرها من سور القرآن الكريم :

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية . مصطفى صادق الرافعي ص ١٧٣ . دار الكتب العلمية . بيروت بدون .

المبحث الأول

تناسب السورة في سياقها المصحفي

سورة النصر جاء ترتيبها بعد سورة الكافرون ، وقبل سورة المسد :

أولا : التناسب بين النصر والكافرون :

سورة الكافرون سورة مكية، بل هي من أوائل السور نزولًا ، وتحكي جانبًا مبكرًا من جوانب الدعوة المحمدية وبداية الصدام بين الرسول – صلى الله عليه وسلم – وصناديد الكفر ، و تجلية لأوجه التناسب والترابط بين سورة النصر والكافرون كان من تمام البحث النظر في مقاصد سورة الكافرون ومعانيها ، يقول البقاعي : " فأمرها أي – سورة الكافرون – دائر على الإخلاص ، ومن المعلوم: أن من أخلص للهِ ، كان من أهل ولايته حقاً، فحق له ما يفعل الولي مع وليه ؛ ولذلك – والله أعلم – سنت قراءتها مع قل هو الله أحد، في ركعتي الفجر، ليحوز فاعل ذلك ثمرة ما ورد من: "أن من صلى الصبح كان في ذمة الله "ومن كان كذلك، كان جديراً بأن ينال ما أشارت إليه السورتان اللتان بين سورتي الإخلاص من الفتح له والنصرة، والخيبة لعدوه والخسر والحسرة". (١)

فسورة الكافرون فيها براءة من الكفر وأهله وإعلان لإفراد الله – عز وجل – بالعبودية ، وكأن هذه السورة تبين بداية الطريق الذي سلكه النبي – صلى الله عليه وسلم – وصحابته الكرام، وسورة النصر تمثل نهاية هذا الطريق وحسن لعاقبة ، ولا يخرج كلام أهل العلم عن هذا المعنى، قال الفخر الرازي– رحمه الله – " كأنه تعالى يقول: لما أمرتك في السورة المتقدّمة بمجاهدة جميع الكفّار، بالتبري منهم، وإبطال دينهم، جزيتك على ذلك بالنصر والفتح وتكثير الأتباع"(٢)،

(١) مصاعد النظر ج ٣ ص ٢٦.والحديث في صحيح مسلم ج ١ ص ٤٥٤ .

(٢) مفاتيح الغيب ج ٣٢ ص ٣٣٤.

بل يزيد الفخر ويربط بين السور الثلاث : الكوثر والكافرون والنصر فيقول : " ووجه آخر، هو: أنه لما أعطاه الكوثر، وهو الخير الكثير، ناسب تحميله مشقّاته وتكاليفه، فعقّبها سبحانه، بمجاهدة الكفّار، والتبري منهم. فلما امتثل ذلك، أعقبه بالبشارة بالنصر والفتح، وإقبال الناس أفواجًا إلى دينه كأنه قال: هل تعلم يا محمد بأي سبب وجدت هذه التشريفات الثلاثة، إنما وجدتها لأنك قلت في السورة المتقدمة: يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون [الكافرون: ١]"[١]

فسورة الكافرون تتحدث عن المفاصلة بين المسلمين والكافرين، ومن قبل ذكرت سورة الكوثر ما يفيد أن هناك مبغضين وشانئين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل ذلك يشعر بالصراع بين جهتين: أهل الإيمان، وأهل الكفر وتأتي سورة النصر ليفهم منها أن العاقبة حتمًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن نصر الله آت، وأن الفتح آت، وأن الدخول في دين الله أفواجًا آت لا محالة؛ ولذلك فإن السورة تأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما ينبغي أن يفعله وقتذاك. فالسورة واضحة الصلات بما قبلها. [٢]

ولا يخرج كلام البقاعي عن ذلك حيث بين وجه المناسبة والاتصال بين السورتين فقال : " لما دلت التي قبلها على أن الكفار قد صاروا إلى حال لا عبرة بهم فيه ولا التفات ولا خوف بوجه منهم ما دام الحال على المتاركة، كان كأنه قيل: فهل يحصل نصر عليهم وظفر بهم بالمعاركة، فأجاب بهذه السورة بشارة للمؤمنين ونذارة للكافرين". [٣]

---

(١) مفاتيح الغيب ج ٣٢ ص ٣٣٥

(٢) ينظر : الأساس في التفسيرج ١١ ص ٦٧٣٨.

(٣) نظم الدرر ج ٢٢ ص ٣١٣

وهذا المعنى نجده عند السيوطي حيث قال : " وجه اتصالها – أي سورة النصر – بما قبلها: أنه قال في آخر ما قبلها: وَلِيَ دِينِ فكان فيه إشعار بأنه خلص له دينه، وسلّمه من شوائب الكفّار والمخالفين، فعقّب السياق ببيان وقت ذلك، وهو مجيء الفتح والنصر، فإن الناس حينما دخلوا في دين الله أفواجًا، فقد تمّ الأمر، وذهب الكفر، وخلص دين الإسلام ممّن كان يناوئه". (١)

فبين السورتين ما يزيد على العشرين عامًا ، وبينهما حوادث وصراعات كثيرة بين الحق والباطل ، بينهما هجرة وجهاد وغزوات وأرواح فاضت إلى خالقها ، بينهما سور كثيرة وقصص وتشريعات وعقائد وأحكام ومع كل ذلك جاء ترتيبهما في المصحف متجاورًا ومتناسبًا على أتم ما يكون التناسب والتلاقي والاتصال ؛ وما ذاك إلا لتستنبط الأمة من خلال هذا الترتيب معنى جليلًا جميلًا ، وهو أن مفتاح النصر والظفر لا بكثرة عدة ولاعتاد ، إنما هو بتحقيق المعنى الحقيقي لعبودية الله – عز وجل – كما جاء في سورة الكافرون فهذه السورة فيها معنى نصرة العبد لله – عز وجل – وقد وعد الله من نصروه بنصرهم، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ الحج: ٤٠ وكانت سورة النصر إنجازًا لوعده – سبحانه – الذي لا يخلف ، وبيانا للأمة أنه لا تحقق لسورة النصر في أي عصر إلا بتحقيق شرائط سورة الكافرون ، وهكذا تقرأ رسالة مجيء سورة النصر بعد سورة الكافرون .

(١) تناسق الدرر في تناسب السور. السيوطي ص ١٤٥ .

ثانيا :التناسب بين النصر والمسد :

سورة المسد من أوائل السور نزولًا ؛ فعندما أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بإنذار عشيرته الأقربين في قوله تعالى : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) صعد النبي – صلى الله عليه وسلم – على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي»، لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقيّ» قالوا: نعم؛ ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا، فنزلت: تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ[1] وكانت زوجه كثيرة الأذى لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقد كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث تمر وتهجوه – صلى الله عليه وسلم – [2] فالسورة نزلت قذائف رادعة متوعدة أبا لهب وزوجه بأنهما سيصليان نار جهنم؛ ولذلك فالسورة تتلاقى مع سورة النصر من وجهين :

الأول : أن فيها معنى من معاني النصر وذلك بمحق أبي لهب وزوجه اللذين آذيا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأهله وصحبه الكرام .

الثاني : أن سورة النصر لما كانت عاقبة الفئة المؤمنة الطائعة جاء بعدها سورة المسد التي تبين عاقبة الفئة التي كفرت بالله ورسوله وكانت حربًا على الإسلام ، وهذا المعنى ناظر لسورة الكافرون التي بينت براءة الرسول – صلى الله عليه وسلم – من الشرك، وجاءت سورة النصر لتبين عاقبة الإيمان، وسورة

(١) صحيح البخاري ج٦ ص ١١١ رقم ٤٧٧٠

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن أبو جعفر الطبري ج ٢٤ ص ٦٧٨ت.الشيخ / أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة ط الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م .

المسد بينت سوء عاقبة الكافرين ؛ ولذلك ربط الفخر الرازي ربطا موفقًا ذكيًّا بين النصر والمسد والكافرون فقال : " لما قال في آخر السورة المتقدمة: لكم دينكم ولي دين فكأنه قال: إلهي وما جزائي فقال: نصر الله، فيقول: وما جزاء عمي حين دعاني إلى عبادة الأصنام، فقال: تبت يدا أبي لهب [المسد: ١] ، فإن قيل: فلم بدأ بالوعد قبل الوعيد؟ قلنا: لوجوه أحدها: لأن رحمته سبقت غضبه، والثاني: ليكون الجنس متصلًا بالجنس، فإنه قال: ولي دين، وهو النصر، وثالثها: الوفاء بالوعد أهم في الكرم من الوفاء بالانتقام، فتأمل في هذه المجانسات الحاصلة بين هذه السور مع أن هذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة، وتلك السورة من أوائل ما نزل بمكة؛ ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله وبأمره). (١)

فسورة النصر جزاء الطائعين وسورة المسد جزاء الكافرين المعاندين ، فالأمر بين النصر والمسد كما قال الألوسي : "من اتصال الوعيد بالوعد، وفي كلٍّ مسرة له – عليه الصلاة والسلام– ". (٢)

وأرى أن ختام سورة النصر (إنه كان توابًا) يعطي مع سورة المسد معنى من المعاني التي طالما رسخها الإسلام ، وهو أن المسلم بعمله لا بنسبه ولا بحسبه، فمع أن الله تواب رحيم إلا أنه كتب على عم النبي – صلى الله عليه وسلم – العذاب، وأن هذا النسب القراب لم يغن عن أبي لهب شيئًا .

ومن المعاني التي تتلاقى بين (التوبة) وسورة المسد أن الله كما أنه تواب رحيم وواسع المغفرة ، هو أيضًا سريع العقاب شديد الحساب ، فلا يركن المسلم إلى رحمته – عز وجل – ويعصيه ؛ بل إنه سبحانه – تواب لمن استغفره وأطاعه، فهذا أبو لهب مع قربه من النبي – صلى الله عليه وسلم – يصلى نارًا

(١) مفاتيح الغيب ج ٣٢ ص ٣٣٥

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. الألوسي ج ١٥ ص ٤٩٦.

ذات لهب ، فلكل صنف معاملته حسب عمله لا نسبه وجنسه، والرسول صلى الله عليه وسلم – هو القائل : " وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ " . (١)

بذلك يكون قد اتضح قوة التناسب بين النصر وما قبلها وما بعدها في السياق المصحفي وهذا يظهر وجهًا إعجازيًا من وجوه إعجاز القرآن الكريم التي لا حصر لها ، و يدل على أن القرآن الكريم هو كتاب الله المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن ترتيب السور فيه إنما هو بأمر الله – عز وجل – لأنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا وإنما هو التناسب والتلاقي والتناغم كأنما أنزلت السور والآيات في زمن واحد ولغرض واحد، ولم لا يكون ذلك وقد " أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (سورة الفرقان ٦)، فهل بقى لأحد ممن يشككون في القرآن الكريم باقية ؟ إن ترتيب سور القرآن الكريم على هذا النحو من الإبداع والتناسب لكاف وحده في إقامة الدليل على أن هذا الكتاب هو كلام الله –عزوجل – وليس بكلام بشر !

(١) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٠٧٤.

المبحث الثاني

التناسب بين سورة النصر والسياق القرآني العام

يثبت هذا المبحث أن القرآن الكريم كله يمثل وحدة موضوعية متكاملة تتلاقى فيها سور القرآن الكريم على مستويات كثيرة ، فسور القرآن الكريم يتناسب بعضها مع بعض، ويتناسل بعضها من بعض ، وهذا ما حاول صاحب الأساس في التفسيرعمله ، وقد أشار إلى ذلك في مقدمته، قال : "إن الخاصية الأولى لهذا التفسير وقد تكون ميزته الرئيسية أنه قدم لأول مرة- فيما أعلم- نظرية جديدة في موضوع الوحدة القرآنية، وهو موضوع حاوله كثيرون وألفوا فيه الكتب ووصلوا فيه إلى أشياء كثيرة، ولكن أكثر ما اشتغلوا فيه، كان يدور إما حول مناسبة الآية في السورة الواحدة، أو مناسبة آخر السورة السابقة لبداية السورة اللاحقة، ولم يزيدوا على ذلك- فيما أعلم- هذا مع ملاحظة أن الموضوع الأول نادرًا من استوعبه والتزم به في تفسير كامل للقرآن، وإذا التزم به فلم يكن ذلك على ضوء نظرية شاملة تحتوي مفاتيح الوحدة القرآنية"[1] وقد جاء هذا التفسير قائمًا على بيان التناسب بين السياق القرآني العام والسياق الخاص داخل السورة الواحدة ، ولعل البقاعي الذي أقام تناسبه على مستويين : مستوى الجمل والتراكيب وتصاعد المعاني داخل السورة الواحدة ، ومستوى التناسب بين السور المتتابعة في الترتيب المصحفي[2]هو الأساس الذي دفع العلماء للتوسع في مفهوم التناسب القرآني خاصة أنه هو القائل : " لا وقف تامّ في كتاب الله تعالى ، ولا على آخر سورة (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)، بل هي متصلة مع كونها آخر القرآن

(١) الأساس في التفسير ج١ ص٢١.

(٢) ينظر : الإمام البقاعي : جهادُه ومنهاجُ تأويله بلاغة القرْآن الكَريم د/ محمود توفيق محمد سعد ص ١٤٣ مكتبة وهبة ط الأولى ١٤٢٤هـ .

بالفاتحة التي هي أوله كاتصالها بما قبلها، بل أشـدّ"[1]، وهذا ما يحاول البحـث إثباته بالدليل :

أولا : التناسب بين سورة النصر والفاتحة(أم الكتاب):

الفاتحة هي أم الكتاب وأم القرآن وقد وضعت في بداية المصحف ؛ لأن كل ما أتى بعدها شارح ومفصل لها فقد اشتملت السورة التي تكتب في سطرين على رسالة الإسلام كله، ففيها توحيد الله –عز وجل – وفيها التذكير برحمانية الله – عز وجل – الواسعة ، وفيها يوم القيامة وقيومية الله– عز وجل عليـه– وفيهـا إفراد الله بالعبودية والاستعانة به – سبحانه – وفيها أحكام الدين وعقائده، وفيها أصناف لا تخرج البشرية عنهم بين منعَم عليهم ومغضـوب علـيهم وضـالين ، فالسورة كما يقول ابن القيم :"اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشـتمال ، وتضمنتها أكمل تضمن ، فاشتملت على التعريف بالمعبود ــ تبـارك وتعـالى ــ بثلاثة أسماء مرجع الأسماء الحسنى والصفات العلا إليها ، ومدارها عليهـا٠٠٠ وتضمنت إثبات المعاد ، وجزاء العباد بأعمالهم حسنها وسيئها وتضمنت إثبـات النبوة من جهات عديدة . [2]

ويبين أستاذنا الدكتور محمود توفيق سعد مركزية سورة الفاتحة بالنسـبة للقرآن الكريم كله، فيقول : "وقد ثبت علميًا أن(مكة) هى مركز الأرض، فهـى أم القرى ومحور أقطارها ، وكذلك الفاتحة هى محور القرآن الكريمِ كله والجامعـة

(١) نظم الدرر . ج ١ص ١٥ .

(٢) ينظر : مدارج السالكين ابن القيم ج١ ص٧ .

معانيه ، فكلٌّ معانيه مرتبطة بسورة الفاتحة وبمحورها { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }"[1]

فكل سورة في القرآن الكريم بينها وبين الفاتحة وجوه تناسب واعتلاق قد تظهر وقد تختفي، لكنها موجودة، وتظل بصائرنا عاجزة عن كشفها إلى أن يمن الله – عز وجل – على من يجلّيها ، ومع أن الفاتحة مكية النزول، بل من أوائل السور المكية ، وسورة النصر المدنية من آخر ما نزل من سور القرآن الكريم ، إلا أن التناسب بينهما ظاهر واضح ، فسورة النصر فيها النصر والفتح ، ودخول الناس في دين الله أفواجًا ، وفيها الاستغفار والتوبة، وهذا يستوجب الحمد الذي بدئت به السورة ، فسورة النصر تأكيد بالدليل العملي على استحقاقه – سبحانه – بالحمد .

وفي النصر معنى مجازاة الفئة المؤمنة في الدنيا، فهذا عاجل بشراهم ،ولهم عند الله في الآخرة الجزاء الأوفى، وهذا معنى (مالك يوم الدين)، فالله له مصير كل الخلائق ، فيجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

وفي السورة ترجمة حقيقية لمعنى قوله تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين) فقد عبد النبي – صلى الله عليه وسلم – وصحابته الكرام – رضي الله عنهم – ربهم وأخلصوا له وسبحوا بحمده واستغفروه ، وهذا معنى (إياك نعبد) وجهاد النبي – صلى الله عليه وسلم – وصحابته – رضي الله عنهم – وانتصارهم ، إنما كان لاستعانتهم به – سبحانه – وتوكلهم عليه فانطلقوا في كل حياتهم مطمئنين ثابتين عالمين أنهم لن يضيعهم الله – عز وجل– وهذا معنى (وإياك نستعين) .

(١) العزف على أنوار الذكر ((معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآنيّ في سياق السورة)) د/ محمود توفيق سعد ص٣٢ .

ومن وجوه الاعتلاق بين السورتين ما نجده بين قوله تعالى :(اهدنا الصراط المستقيم) وسورة النصر فمن التزم صراط الله المستقيم كما فعل الرسول – صلى الله عليه وسلم – وصحبه الكرام يصل إلى عطاءات سورة النصر الدالة على التمكين في الدنيا والمهيئة من خلال التسبيح والاستغفار لاستقبال عطاءات الآخرة ، وسورة النصر من عطاءات الله – عز وجل – لمن ورد ذكرهم في قوله تعالى : (صراط الذين أنعمت عليهم)، فالتناسب بين سورة النصر والفاتحة "يلهمان معجزة قرآنية ربانية، ففي سورة الفاتحة براعة استهلال للدعوة الإسلامية والقرآن، وفي سورة النصرهتاف رباني بما تمّ من نصر الله للدعوة الإسلامية"(١)، وأستطيع أن أقول: إن سورة الفاتحة هي الدين كله، وسورة النصر هي جزاء المتمسكين بهذا الدين .

ثانيا : التناسب بين سورة النصر و سورة البقرة :

سورة البقرة هي أول ما نزل بالمدينة، واشتملت على آخر آية نزولًا ، وهي قوله تعالى : (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) البقرة ٢٨١ (٢)، وهذا يدل على أن السورة الكريمة استغرق نزولها المرحلة المدنية كلها ، مما يبين أهمية هذه السورة ومكانتها ؛ لاشتمالها على مقاصد الإسلام الرئيسية وأحكامه وعقائده الأساسية، وإذا كانت الفاتحة قد اشتملت على معاني القرآن الكريم وأحكامه وعقائده إجمالًا فإن سورة البقرة كانت تفصيلًا لما أجمل في الفاتحة ، وسورة هذا حالها لن تعدم وجوه التناسب بينها وبين أي سورة في القرآن الكريم بله سورة النصر ، وقد ختم ابن الزبير الغرناطي حديثه عن سورة البقرة قائلًا :" فحصل من هذه السورة بأسرها بيان الصراط المستقيم على الاستيفاء والكمال ، أخذًا وتركًا

(١) التفسير الحديث . د/ دروزة محمد عزت ج٩ ص ٥٧٤.

(٢) ينظر : مصاعد النظر ج ٢ ص ٥.

وبيان شرف من أخذ به، وسوء حال من تنكب عنه، وكأن العباد لما عُلِّموا (أن يقولوا) اهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة قيل لهم: عليكم بالكتاب إجابة لسؤالهم، ثم – بين لهم حال من سلك ما طلبوه، "[1] فإذا كانت سورة البقرة بيانًا لأصحاب الصراط المستقيم فإن سورة النصر بيان شرف أصحاب هذا الصراط وهي عطاء الله – عز وجل – لمن آمنوا به واتبعوا هذا الصراط المستقيم، ولذلك كان الشيخ محمد الغزالي موفقًا عندما جعل مقصود سورة البقرة هو التقوى، فمادة هذه الكلمة تكررت في السورة بضعًا وثلاثين مرة، والآيات الثلاث الأول تحدثت عن خصال المتقين[2] لتنتهي إلى بيان أنهم هم المفلحون قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ ﴾ البقرة: ١ – ٥ وهذا الصنف الطائع التقي هم الذين نصرهم الله – عز وجل – ومكن لهم وهم الذين سبحوه واستغفروه وتاب الله عليهم ؛ إذ كانوا أهلًا لذلك، وقد عمقت سورة البقرة الحديث عن التقوى والمتقين؛ لأنها القصد من العبادة؛ ولذلك كان أول أمر في البقرة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ﴾ البقرة: ٢١ وتوالت الآيات التي أمرت بأركان الإسلام من صلاة وحج

(١) البرهان فى تناسب سور القرآن ابن الزبير الغرناطي ص ١٩٤ ت. أ/ محمد شعباني . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ــ المغرب ط أولى ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م

(٢) ينظر : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم . الشيخ / محمد الغزالي . ص ١١ دار الشروق ط الرابعة ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م .

وزكاة وصيام ، وكلها مردها إلى تربية العبد الرباني التقي الذي يستحق سورة النصر وعطاياها .

والسورة تتلاقى مع حوار الملائكة مع الله- عزوجل – في شأن خلق آدم قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ البقرة: ٣٠

فقد حققت هذه الفئة مثالية الاستخلاف في الأرض والتي أشارت الملائكة إليها في قوله تعالى: (نسبح بحمدك ونقدس لك)، وكأن هذا هو السياج العام الذي يجب أن تعيش الإنسانية فيه، فسعة علم الله محيطة بكل شيء، وهو سبحانه يعلم أن آدم – عليه السلام – ونسلًا من نسله سيكونون أهلًا لحمل الأمانة وسيعبدون الله – عز وجل – حق عبادته ، فلم يخل عصر من الموحدين ، وهذا السياج الإيماني (التسبيح والتقديس) كان أتم ما يكون في رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصحبه الكرام، وكل من سار على هديهم ونهجهم .

وفي سورة البقرة حديث عن الفئة التي باعت أنفسها لله – عزوجل – وجاهدت وهاجرت قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ البقرة: ٢٠٧

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ البقرة: ٢١٨

والملاحظ أن الآيتين تشيران إلى أن هؤلاء الأبرار الأخيار يحتاجون مع كل تلك العبادات والتضحيات إلى الرأفة والمغفرة والرحمة ، وهذا ما رأيناه واقعًا حقيقيًا في سورة النصر، فها هو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد أدى

الرسالة، وبلغ الأمانة ونصح الأمة حتى كشف الله به الغمة، وجاهد في الله حق الجهاد، ومع كل ذلك يؤمر بالتسبيح بحمده – سبحانه– واستغفاره، ولا شك أن غيره – صلى الله عليه وسلم – أشد حاجة إلى هذا التسبيح و الاستغفار .

وهذه السورة الكريمة جاءت نفاذًا لوعد الله – عز وجل – الذي طمأن به العصبة المؤمنة قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ البقرة: ٢١٤

وها هو نصر الله قد جاء، ووعد الله قد تحقق، ولا مبدل لكلمات الله – سبحانه – .

وفي سورة البقرة تذكير باليوم الآخر وأخذ الأهبة والاستعداد له قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ البقرة: ٢٨١

وسورة النصر فيها التهيئة لاستقبال الموت بالتسبيح والاستغفار، والآية تلتقي مع السورة الكريمة في تأخر النزول ، والاستعداد للقاء علام الغيوب بعد أن تم الأمر واكتمل ،

ويأتي آخر سورة البقرة ليبين مبلغ إيمان الرسول – صلى الله عليه وسلم – وصحبه الكرام ثناء منه – سبحانه – عليهم قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا

تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ البقرة: ٢٨٥ – ٢٨٦

فهم في منتهى الإذعان والطاعة لله – عز وجل – عنوان حياتهم (سمعنا وأطعنا)،

وهم مع إيمانهم وطاعتهم في مناجاة خاشعة مع الله – سبحانه – يتلمسون أسباب النصر ويعلمون أن الله – عز وجل – هو الناصر الحقيقي؛ لذلك دعوه وسألوه – سبحانه – النصر على الكافرين، أستطيع القول: إن سورة البقرة ترسم شخصية المسلم المستحق للخلافة في الأرض، والذي يجري الله النصر على يديه وسورة النصر تأكيد على هذا الاستحقاق، وبيان عملي للفئة التي تستحق تنزل النصر عليها .

ثالثا : التناسب بين النصر والمائدة :

فكرة هذا التناسب أوحى إليها البقاعي الألمعي الفذ ، فقد التقط وجوه تناسب رابطة بين أوائل السور في الترتيب المصحفي وأواخرها فيه ، وجعل ذلك من باب رد المقطع على المطلع، وما ذاك إلا لأن البقاعي ينظر إلى كتاب الله على أنه ذو سياق دائري، يقول الدكتور / محمود توفيق سعد : " فالأولية والآخرية في ترتيب السور إنما هى أولية فى نسق التلاوة، فالقرآن ذو سياق دائرى، ليس له بداية لا تلتحم بشئ ، وليس له نهاية ينقطع عندها ، ومن ثم كان التحريض النبوى لتالى القرآن الكريم أن يكون كالحال المرتحل ، سئل النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أى العمل أفضل ؟ قال الحال المرتحل، قيل : وما الحال المرتحل ؟ قال: صاحب القرآن يضرب من أول القرآن إلى آخره، ومن آخره إلى أوله ،كلما

حل وارتحل"[1] والبقاعي في سبيل التأكيد على ذلك رد آخر تسع سور من المصحف على أول تسع سور فيه ، ففي نهاية حديثه عن سورة قريش ردها إلى سورة التوبة، قال : " وكما التقى آخر كل سورة مع أولها فكذلك التقى آخر القرآن العظيم بأوله بالنسبة إلى تسع سور، هذه أولها، إذا عددت من الآخر إليها، فإن حاصلها المن على قريش بالإعانة على المتجر إيلافاً لهم بالرحلة فيه والضرب في الأرض بسببه واختصاصهم بالأمر بعبادة الذي منّ عليهم بالبيت الحرام، وجلب لهم به الأرزاق والأمان، ومن أعظم مقاصد التوبة – المناظرة لهذه بكونها التاسعة من الأول – البراءة من كل مارق، وأن فعل ذلك يكون سبباً للألفة بعد ما ظن أنه سبب الفرقة، وذكر مناقب البيت ومن يصلح لخدمته، والفوز بأمانه ونعمته، والبشارة بالغنى على وجه أعظم من تحصيله بالمتجر وأبهى وأبهر، وأوفى وأوفر، وأزهى وأزهر، وأجل وأفخر، بقوله تعالى: {ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم} الآيات، [التوبة: ١٧] وقوله تعالى: {وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله} [التوبة: ٢٨] فعلم بهذا علماً جلياً أنه شرع سبحانه في رد المقطع على المطلع من سورة قريش ..... ومن أعظم المناسبات في ذلك كون أول السورة التي أخذ فيها في رد المقطع على المطلع شديد المشابهة للسورة المناظرة لها حتى إن في كل منهما مع التي قبلها كالسورة الواحدة، فإن براءة مع الأنفال كذلك "[2] وقد أكثرت النقل لتتأكد فكرة البقاعي الذي سمَّي هذا الصنيع رد المقطع على المطلع، وما

(١) الإمام البقاعي د / محمود توفيق سعد ص ١٨٦ ومابعدها . والحديث فى المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابورى ج١ ص٧٥٧ ت/ مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية ٠ بيروت ٠ ط أولى ١٤١١هـ / ١٩٩٠م٠

(٢) نظم الدرر ج ٢٢ ص ٢٦٧ ومابعدها .

ذكره من وجوه التناسب لا تكلف فيها، بل كأن السورتين متجاورتين، ونزلا لهدف واحد ، وفي زمن واحد ، وهذا العمل اللافت والفكر العالي يبين روح التناسب العميقة بين كافة السور القرآنية مما يؤكد على أن هذا الترتيب إلهي، وإذا كان القرآن الكريم معجزًا في كلماته وجمله وآياته ، فهو معجزة المعجزات في ترتيب السور مصحفيًا ونزوليًا .

وكما رد البقاعي قريش إلى التوبة رد النصر إلى المائدة ، فقال : (كما بكى عمر رضي الله عنه عند نزول آية المائدة، وعلل بهذا – والله الهادي، وقد ظهر بهذا أن حاصلها الإيذان بكمال الدين ودنو الوفاة لخاتم النبيين، والنصر على جميع الظالمين الطاغين الباغين، وذلك من أعظم مقاصد المائدة، المناظرة لهذه – يقصد سورة النصر– في التطبيق بين البادئة والعائدة ، كما أشار إليه قوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم} [المائدة: ٣] وقوله تعالى: {ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون} [المائدة: ٥٦] وقوله تعالى: {لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير} [المائدة: ١٢٠]). [(١)]

فالبقاعي يجعل التناسب بين المائدة والنصر في كون المائدة أشعرت بكمال الدين ودنو وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – ولذلك بكى سيدنا عمر – رضي الله عنه – عندما سمع قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم .....الآية)؛ لأنه أدرك قرب وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – وهذا ما أوحت به سورة النصر فقد أدرك الصحابة أنها نعي رسول الله – صلى الله عليه وسلم –

والبقاعي في معرض بيان مناسبة ختام سورة النصر بالاستغفار والتوبة يصرح بأن ذلك محمود ومطلوب في نهايات الأعمال خاصة أن السورة نزلت بعد

(١) نظم الدرر ج ٢٢ ص ٣٢٢ .

آية المائدة – التي هي نظيرتها في رد المقطع على المطلع – وهي قوله تعالى : {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً} [المائدة: ٣] فالبقاعي يصرح برد سورة النصر إلى هذه الآية، والتناسب بينهما جد قريب وواضح ، ففي النصر وآية المائدة إعلام بكمال الدين ودنو أجل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولذلك كان تأثيرهما واحدًا على الصحابة الأكرمين ، فقد بكوا حزنًا على دنو أجل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

ورد البقاعي النصر إلى آية أخرى في المائدة قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ المائدة: ٥٦

فآية المائدة وعد بنصرة وغلبة الحزب الذي يجعل نصرته بالله ورسول الله والمؤمنين فلا يتولى غيرهم ولا يعتز إلا بهم ، وهنا يتنزل النصر عليهم كما حدث ورأيناه واقعًا مع النبي – صلى الله عليه وسلم – وصحابته الكرام الذين نصروا الله فنصرهم، وفتح لهم البلاد وقلوب العباد .

ورد السورة – أيضًا – إلى آخر آية في المائدة : قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ المائدة: ١٢٠فالله مالك الملك كله يؤتي الملك من يشاء وينزعه عمن يشاء، وله – سبحانه – طلاقة القدرة ، فمكن للمستضعفين، ونصرهم على الطواغيت ، وفتح للإسلام قلوبًا غلفًا وأعينًا عميًا وآذانًا صمًا كما جاء في سورة النصر التي دلت على طلاقة القدرة الإلهية .

وفي المائدة تهديد لكل من حارب الله ورسوله بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ

ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ المائـــــــدة :٣٣ وجاءت سورة النصر بيانا عمليا لخذلانهم في الدنيا .

وبذلك تلاقت سورة النصر الخامسة في ترتيب السور من آخر المصحف مع سورة المائدة المناظرة لها بالنسبة إلى ترتيبها من أول المصحف ليتأكـــد مـــن خلال ذلك على تلاحم القرآن الكريم وقوة سبكه ومتانة نظمه، وأنه أفرغ إفراغًـــا واحدًا كحلقـــة مفرغة لا يدرى أين طرفاها.

رابعا : التناسب بين النصر والسور المفتتحة بالشرط :

السور المفتتحة بالشرط حسب الترتيب المصحفي هي الواقعة والمنـــافقون والتكوير والانفطار والانشقاق والزلزلة ثم النصر، وحســـب ترتيـــب النـــزول : التكوير ، الواقعة ، الانفطار ، الانشقاق ، الزلزلة ، المنافقون ثم النصر. (١)

وقد سمى شيخنا المطعني – رحمه الله رحمـــة واســـعة – هـــذه الســـور بالمجموعة الشرطية وذكر عدة خصائص تشترك فيها كافة هذه السور ، فالطابع الغالب عليها أنها مكية النزول، ما عدا " الزلزلة " ، والمنافقون والنصر ومعظـــم هذه السور يتحدث عن القيامة ومقدماتها فكافة موضوعاتها أمور مستقبَلة فـــي الغالب. استقبالاً حقيقياً، كما سيحدث من مقدمات القيامـــة وأهـــوال الحشـــر، أو استقبالاً باعتبار الحكاية كمجيء نصر الله فى مطلع سورة " النصر " ، والحـــديث في هذه السور إذا كان عن مشهد من مشاهد القيامة ، أو عن أمر يتكـــرر مـــن مظاهر الطبيعة وسُنة الله في الكون، أو عن مصير عام محتوم ، أو ما قارب هذه الأمور فالأداة المفضلة هي " إذا " المؤذنة بتحقيق شرطها وجوابهـــا ، والقيمـــة

(١) ينظر : الاتقان في علوم القرآن ج٣ ص ٣٦٢والبرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيـــه من الحجة والبيان . الكرماني . ج١ ص ١٨٠ ت .الشيخ /عبد القادر أحمـــد عطـــا . دار الفضيلة . بدون .

البيانية لهذا المطلع الشرطي التي من أجلها – والله أعلم – آثر القرآن افتتاح هذه السور بها ، هي أن الأسلوب الشرطي يمتاز بربطه بين أجزاء الكلام ربطاً ملاحَظاً فيه ترتب السبب على السبب ، فإذا ذكِرت أداة الشرط وأردفت بفعل الشرط تشوقت النفس إلى ذكر ما سيكون ، فإذا ذكِر الجواب بعد هذه الإثارة وهذا التشويق تمكن أيما تمكن ، والذي يزيد من هذه القيمة البيانية لأسلوب الشرط في القرآن الكريم أمران:

الأول: أن القرآن في غالب الفواتح من هذا النوع لا يكتفى بفعل شرط واحد – كما هو الحال في غيره – بل يقرن به أشباهاً ونظائر يطول تأمل السامع فيها وتضاعف من تشوقه إلى الجواب، كلما انتقل من جزء إلى جزء يأتيه الجواب بعد تلهف وطول ترقب.

الثاني: أن أجزاء الأسلوب الشرطي في القرآن ليست من جنس ما يستعمله الناس من أمور عادية قد لا يهتم بها إنسان أو ليس للوقوف عنده على مدلولاتها كبير معنى – أو ربما تنبأ – سَلَفاً – بما سيكون عليه الحال فلا يفيد منها فائدة جديدة ، وليس الحال كذلك في القرآن. بل فيه – فوق دقة النظم وجمال التركيب غرابة وجزالة.

ويخلص أستاذنا إلى أن انتظام تلك السور تحت ذلك الأصل لم يكن محض صدفة ، بل هو تدبير حكيم وصنع خبير، فتلك الأصول – في جملتها – ضرب من البيان رفيع، ونمط من التعبير معجز، ولون من البلاغة فريد، إذ هي آنق، وأنسب الكلام مطالع، وأجزلها وأعذبها ألفاظاً ، وأشرفها وأنبلها مقاصد، وأحسنها وأجودها سبكاً، وأدقها وأروعها نظماً، ومطالع الكلام هي أول ما يقرع السمع

ويصل إلى النفس ، فإذا توافرت لها خصائص التعبير الجميل خفت النفس لسماعه وأقبلت على فهم معناه.(١)

فأستاذنا – عليه رحمة الله – بين الخصائص العامة الجامعة بين هذه السور الشرطية ووضح القيمة البيانية لافتتاح السور بالشرط ، لكن يبقى بيان لحمة التناسب الجامعة بين سورة النصر وهذه السور كافة ، والذي ألاحظه أن السور : الواقعة والتكوير والانفطار والانشقاق والزلزلة جميعها متشابهة المقاصد والأغراض فهي تتحدث عن أهوال القيامة وانقسام الناس في الجزاء إلى منعمين ومعذبين فسورة الواقعة فيها :

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ ﴾ الواقعة: ٣ وفيها :

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤ ﴾ الواقعة: ٧ – ١٤

وتنتهي السورة – أيضًا – بالحديث عن نعيم الفئة المؤمنة وعذاب الفئة الضالة المكذبة، مما يستوجب تسبيحه – سبحانه – وتمجيده قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣

(١) ينظر : خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية . د/ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني ج١ ص ٢١١ وما بعدها مكتبة وهبة ط الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م

وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ الواقعة: ٨٨ – ٩٦

تلتقي هذه المعاني مع سورة النصر التي تهييء النبي – صلى الله عليه وسلم – للقاء ربه، والموت أول منازل الآخرة ، ولذلك تسمى سورة التوديع – كما مر – ولا شك أن النبي – صلى الله عليه وسلم – والفئة التي آمنت به وصدقته يناسبها التكريم والنعيم الوارد في هذه السورة ، فهم السابقون وأصحاب النعيم، وهذا هو معنى الرفع في قوله تعالى : (خافضة رافعة)، فكما رفعهم الله في الدنيا، ومكن لهم، وأجرى الخير على أيديهم في الدنيا (سورة النصر) يستقبلهم نعيم الآخرة ، ولأنهم سبحوا بحمده، واستغفروه، وتابو، وأنابوا إليه كانوا أهلًا لهذا النعيم ، والنموذج الكافر الذي تحدثت عنه سورة المسد يناسبه أصحاب الشمال المخفوضين يوم القيامة .

وهذه المعاني التي تتلاقى مع سورة النصر شديدة الوضوح في كافة السور، ففي سورة التكوير نجد الجحيم قد سعر لاستقبال نموذج (سورة المسد) والجنة قد أزلفت لاستقبال الفئة الطائعة المنصورة.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ ﴾ التكوير:١٢ – ١٣

وفي هذه اللحظة تعلم كل نفس ماقدمت قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾ التكوير: ١٤

تمهيدًا لتمايز كل فريق، ففريق في الجنة، وفريق في السعير، وكذا في سورة الانفطار قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ الانفطار: ٥

فلا تغني نفس عن نفس شيئًا، وهنا يأتي الحديث عن الفئتين :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ الانفطار: ١٣ – ١٤

وفي سورة الانشقاق يتحدث النظم عن المصير المحتوم، وما بعده من نعيم وعذاب :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ الانشقاق: ٦ – ١٢ وكذلك الزلزلة لا تخرج عن هذه الروح وتلك المعاني :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ الزلزلة: ٦ – ٨

فكل السور تدل على أن لله أولياء هم في الآخرة منعمون، ولله أعداء يعذبون ،وهذا يتناسب مع سورة النصر، فقد نصر الله الفئة المؤمنة في الدنيا والآخرة ؛ لأنها كانت أهلا لذلك، فهي مع جهادها وتقواها وعبادتها تسبح وتستغفر وتتوب إلى خالقها .

أما سورة المنافقون فتلتقي مع سورة النصر في أكثر من معنى :

أولا : سورة المنافقون تتحدث عن مرحلة من مراحل الصراع الشديدة بين النبي – صلى الله عليه وسلم – والمنافقين ، حتى قال كبير المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول رأس المنافقين – عليه لعنة الله – كما حكى القرآن الكريم : قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴿٨﴾ ﴾ المنافقون: ٨

وكان الرد الحاسم من الله – عزوجل – قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ المنافقون: ٨

فكانت سورة النصر تحقيقًا لهذا الوعد الإلهي الذي لا يخلف ، فقد نصره الله على كافة أعدائه كفارًا ومشركين ومنافقين ويهود، ودخل الناس في دين الله أفواجًا ، فالآن ليعلم المنافقون وغيرهم لمن العزة اليوم ؟!

ثانيًا : في سورة النصر أمر بالتسبيح بحمد الله واستغفاره، وهذه منة من الله – عز وجل – ؛ حيث وفق العبد لأن يكون عبدًا له – سبحانه – لكن المنافقين لو استغفر لهم أكرم الخلق على الله – عز وجل – وهو سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما استغفر الله – عز وجل – لهم قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ المنافقون: ٥ – ٦

ثالثًا : في نهاية السورة ذكر الموت وأن لكل أجل كتاب قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ المنافقون: ١١

حتى لو كانت هذه النفس نفس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والتي كانت سورة النصر إيذانًا بقرب أجله –صلى الله عليه وسلم – وهكذا ظهر التناسب واضحًا جليًا بين سورة النصر وكافة السور المفتتحة بالشرط .

هذا وقد تلمسنا وجوه مناسبات عديدة بين سورة النصر وكافة السور التي ارتبطت بها على مستوى السياق القرآني العام ، مع تباعد أزمان النزول وتنوع المعاني والأغراض والحوادث والوقائع التي ارتبطت بها هذه السور ، وكل هذا يدل على أن هذا الكتاب هو كلام الله – عز وجل – المنزل على سيدنا رسول الله

– صلى الله علي وسلم – وليس أساطير الأولين ، وليس كلام بشر ، وليس كلام ساحر، وإذا لم يكن هذا القرآن كلام الله المعجز، فقل لي بربك هل يستطيع الإنس والجن مجتمعين أن يرتبوا كتابا أنزل في أكثر من عشرين عاما وارتبطت آياته بحوادث ووقائع مختلفة متباعدة الزمان والمكان ، ثم بعد ذلك يرتب ترتيبًا آخر لا نرى فيه إلا قوة الاتصال وسديد الإحكام وشدة الاعتلاق ، ومتانة السبك وعلو الحبك وتمام التناسب ؟ ! أقول ليس لذلك سبيل لأي لمخلوق ، ولا يقدر على ذلك إلا رب العزة والملكوت .

المبحث الثالث

تناسب السورة في سياقها النزولي

كل سورة وكل قصة وآية في القرآن الكريم لها سياقها التاريخي التي نزلت فيه؛ لتخدم هذا السياق وتعالج هذه الأحداث، ومعرفة هذا السياق التاريخي مطلوب ومرغوب ، والمرفوض فيه هو حبس النص القرآني في السياق التاريخي والادعاء بأن سور القرآن الكريم تحتاج إلى ترتيب وفق السياق التاريخي كما زعم بعض المستشرقين [١]، وهذه دعوى باطلة حاقدة تبعد القرآن الكريم عن روحه وهدفه في كونه كتاب الهدى للبشرية كلها في الأزمان كلها .

أما معرفة السياق النزولي والإحاطة به فيكشف عن "تاريخ التشريع الإسلامي ومراقبة سيره التدريجي والوصول من وراء ذلك إلى حكمة الإسلام وسياسته في أخذه الناس بالهوادة والرفق والبعد بهم عن غوائل الطفرة والعنف سواء في ذلك هدم ما مردوا عليه من باطل وبناء ما لم يحيطوا بعلمه من حق". [٢]

ولذلك فالسياق النزولي يحتاج إلى مزيد فقه وتدبر لفهم حركة الدعوة المحمدية في إصلاح المجتمع والتدرج في إقامة الدين ، وتوظيف ذلك الفهم في معالجة الواقع وإصلاحه بعيدًا عن الغلو والتشدد ، ومعرفة هذا السياق يبين – أيضًا – كيفية تعامل النبي – صلى الله عليه وسلم – مع كافة الأجناس المنتمية إلى أديان مختلفة ، وطرق دعوتهم خاصة أن الأسلوب الدعوي يتنوع بين الترغيب والترهيب تبعًا للمقام وخصوصية الحدث وجهة صدوره إلى غير ذلك

---

(١) ينظر : جمع القرآن . دراسة تحليلية لمروياته . د/ أكرم الديلمي . ص ٢٧٨ وما بعدها . دار الكتب العلمية . بيروت . بدون .

(٢) مناهل العرفان ج ١ ص ٩٢

من الاعتبارات المرعية ، وهذا يعطي الدعاة دربة وتمرسًا وذكاء لاستخدام الطريقة المثلى التي تؤثر في النفوس ، وتلين القلوب ، ويقفز في ذهني سؤال : إذا كان الترتيب النزولي له خطره وأهميته فلماذا لم يرتب القرآن الكريم نزوليًا ؟!

والجواب : أن القرآن الكريم لو جمع ورتبت سوره على حسب ترتيب نزوله "لفهم بعض الناس أن آياته خاصة بحوادثها أو أنه حلول وقتية للمشكلات التى كانت على عهد الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فحسب ، والله تعالى يريد كتابه عامًا خالدًا لا يختص بعصر دون عصر، ولا بقوم دون قوم ، لذلك اقتضت الحكمة أن يرتب ترتيبًا يحقق هذا العموم وهذا الخلود ، ويبتعد عن الترتيب الزمني الذى نزل به لحكمة كانت مناسبة حين نزوله "."[1] وبيان هذه الحكمة المناسبة في السياق النزولي هي غاية هذا المبحث .

وسورة النصر نزلت بعد التوبة ، قال الزمخشري : "وهي آخر ما نزل من السور وآياتها ٣ ، نزلت بعد التوبة" [2] فالراجح عند أهل العلم أن سورة النصر نزلت بعد سورة التوبة، وهي آخر السور التي نزلت كاملة من القرآن الكريم بالمدينة، وهذا لا يعني أن لا يكون نزل بعدها قرآن ، وكل ما هناك أنه لم ينزل سور جديدة تامة ، وأن ما يحتمل أن يكون من قرآن قد نزل بعدها قد ألحق بسور أخرى بأمر النبي صلى الله عليه وسلم والله أعلم.[3]؛ لذلك سيبين البحث التناسب

---

(١) المجتمع المثالى كما تنظمه سورة النساء أ/ محمد محمد المدنى ص ٢ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) الكشاف . الزمخشري . ج ٤ ص ٨١٠ دار الكتاب العربي– بيروت ط الثالثة–١٤٠٧ هـ.

(٣) ينظر : البيان في عدّ آي القرآن أبو عمرو الداني ص ١٣٦وما بعدها ت . د/ غانم قدوري الحمد مركز المخطوطات والتراث – الكويت الأولى، ١٤١٤هـ– ١٩٩٤م و التفسير الحديث د/ دروزة محمد عزت ج٩ ص ٥٧٤ . وإتقان البرهان في علوم القرآن د. فضل عباس . ج١ ١٩٥ دار الفرقان . ط أولى ١٩٩٧م .

بين سورة النصر وما قبلها وهي سورة التوبة، والتناسب بين النصر وآخر الآيات نزولًا، والتناسب بين النصر والعلق أول الآيات نزولًا .

أولا : التناسب بين النصر والتوبة :

التناسب بين النصر والتوبة ظاهر جلي على كافة المستويات ، بداية من أسماء سورة التوبة ومقصدها ، ومطلعها وموضوعاتها ، وخاتمتها ، فمن أسمائها : التوبة، والفاضحة، والبحوث، والمبعثرة، والمثيرة والحافرة، والمخزية، والمهلكة، والمشردة، والمرشدة، والمنكلة والمدمدمة وسورة العذاب، والمقشقشة.(١) فاسم التوبة مناسب لما ورد في سورة النصر من التذكير بأن الله يقبل التوبة، ولعل السورتين الكريمتين وهما أواخر السور نزولًا يبينان طبيعة الرحمة في هذا الدين، وأن الأصل فيه الرحمة والترغيب في التوبة، وهذا ما حفلت به سورة التوبة، وختمت به سورة النصر

ففي سورة التوبة تحدثت آيات كثيرة عن التوبة والتائبين :

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ﴿٣﴾ ﴾ التوبة: ٣

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ التوبة: ٥

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ التوبة: ١٥

(١) ينظر : مصاعد النظر ج ٢ ص ١٥١.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧ ﴾ التوبة: ٢٧

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٧٤ ﴾ التوبة: ٧٤

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٠٢ ﴾ التوبة: ١٠٢

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤ ﴾ التوبة: ١٠٤

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠٦ ﴾ التوبة: ١٠٦

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧ ﴾ التوبة: ١١٧

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨ ﴾ التوبة: ١١٨

فسورة التوبة تلفها الرحمة والترغيب في التوبة لكل من جاء بابه – سبحانه –مستغفرًا تائبًا مهما كانت الذنوب والتبعات ، بل السورة تنهي الحديث عن التوبة والتائبين بقصة الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في غزوة العسرة ، ومع عظم الذنب تاب الله عليهم ليتوبوا، وهذا ما أمرت به سورة النصر وشغلت وذكرت به استعدادًا وتهيئة للقاء الله – عز وجل – .

وبقية أسماء السورة (الفاضحة، والبحوث، والمبعثرة، والمثيرة والحافرة، والمخزية، والمهلكة، والمشردة، والمرشدة، والمنكلة والمدمدمة وسورة العذاب، والمقشقشة.) يتناسب مع ما في سورة النصر من معاني العزة والتمكين والفتح ورفع راية الإسلام، وما يتبع ذلك من ذلة وخزي وهوان للمشركين والمنافقين وأذنابهم خاصة أن مقصد السورة هو " معاداة من أعرض عما دعت إليه السور الماضية، من اتباع الداعي إلى الله في توحيده، واتباع ما يرضيه، وموالاة من أقبل عليه"(١)، وسورة النصر ثمرة هذه المعاداة، فمن عادى من أعرض عن دين الله، واتبع الله – عز وجل – ورسوله – صلى الله عليه وسلم – وابتغى رضاهما ووالاهما كان حقًا على الله – عز وجل – نصره، ومطلع سورة التوبة نابض بهذا المعنى قَالَ تَعَالَى: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ ﴾ التوبة: ١ – ٢

(١) ينظر : مصاعد النظر ج ٢ ص ١٥٣ .

"فمنطوق المطلع يعني معاداة كل المشركين ، ومفهومه يعني موالاة الله ورسوله والمؤمنين "[1] وجاءت موضوعات السورة لتؤكد على هذا المنطوق والمفهوم، ففي السورة مجاهدة المشركين وقتال أئمة الكفر والنفاق: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ ﴾ التوبة: ١٢ - ١٣

ولأن الإسلام أصبح له شوكة فعلى المشركين أن يعرفوا حجمهم وحقارتهم في وصف قوي واضح: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨ ﴾ التوبة: ٢٨

وإذا كانت سورة النصر تفتح باب الرحمة والمغفرة والتوبة فإن هذه السورة تبين أن لهذا الباب رجاله من المؤمنين أما المنافقون فهم محرومون من هذا الفضل وهذه الرحمة حتى لو استغفر لهم الرسول – صلى الله عليه وسلم- فلن يغفر الله لهم قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٨٠ ﴾ التوبة: ٨٠

فهؤلاء هم النموذج المدني الشبيه بما صورته سورة المسد المكية عن الذين آذوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وابتغوا له الفتنة، وقلبوا له

(١) علاقة المطالع بالمقاصد . د/ إبراهيم الهدهد . ص ٢٤٥ .

الأمور ، حتى عرضه الشريف – صلى الله عليه وسلم – لم يسلم منهم ، فكان جزاؤهم الخزي والصغار، وهذا معنى واضح من معاني النصر في العهد المدني يتناسب مع عطاءات سورة النصر .

وفي سورة التوبة بيان للفئة الفائزة صاحبة الدرجات عند الله وصاحبة الفوز العظيم:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ التوبة: ٢٠

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ التوبة: ١٠٠

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ التوبة: ١١١

وهذا هو النصر للفئة التي باعت أنفسها لله – عزوجل – فنصرهم على أعدائهم، وفتح الله لهم البلاد والعباد .

وفي سورة التوبة وعد بإظهار هذا الدين وسورة النصر تحقيق لهذا الوعد

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ التوبة: ٣٢ – ٣٣

وقد أتم الله نوره ونصر الله – عز وجل – عبده، وأظهر الله الإسلام على الدين كله كما ورد في سورة النصر .

وفي سورة التوبة تأكيد على معنى (نصر الله)، وأن النصر لا بكثرة عدد ولا تمام عدة وإلا فانظروا لحالكم يوم حنين :

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ التوبة: ٢٥ – ٢٦

وفي درس الهجرة تأكيد وتربية للأمة على الثقة في نصر الله ، وأن المسلم إذا صدق مع الله صدق الله معه ونصره من حيث لا يحتسب ، مهما كانت الأسباب واهية والعدة ناقصة قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ التوبة: ٤٠

وهذا المعنى كان مقصود سورة النصر التي ترد كل نصر إليه – سبحانه – فالنصر نصره و الفتح فتحه ؛ ولذلك سبح بحمده واستغفره أيها المؤمن .

وكما تناسبت سورة النصر مع سورة التوبة : أسماء ، ومطلعًا ، ومقصدًا ، وأغراضًا تناسبت أيضًا خاتمة قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ التوبة: ١٢٨ - ١٢٩

فهذا الرسول – صلى الله عليه وسلم – كان حريصًا على إيمان أمته وهدايتهم ، ولذلك ما دعا رسول الله – صلى الله عليه وسلم –على قومه بالاستئصال شفقة ورحمة بهم وطمعًا في إيمانهم حتى كان ما أراده النبي – صلى الله عليه وسلم – (ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا) .

وتؤكد الآية الأخيرة على أن الكافي هو الله – عز وجل – وهو الناصر والمعين فلتصدق في التوكل عليه فهو رب العرش العظيم الذي بيده ملكوت كل شيء ، ولأن النبي – صلى الله عليه وسلم – وصحابته الكرام صدقوا في توكلهم وإيمانهم ولم يكن قولهم : (حسبنا الله ونعم الوكيل) شعارًا لسانيًا فحسب، بل كان أسلوب حياة وعقيدة راسخة ؛ لذلك جاءهم نصر الله والفتح والتمكين .

وفي سورة النصر تسبيح بحمد الله وأمر باستغفاره ، وما قولهم : (حسبي الله) والتوكل على الله إلا معنى من معاني تسبيحه وتحميده .

وبذلك تكون سورة النصر قد تلاقت مع سورة التوبة في أسمائها ومطلعها ومقصدها وموضوعاتها وخاتمتها ، فالسورتان روحهما واحدة ومعانيهما وأغراضهما متقاربة يحكيان الواقع النزولي، وما كان فيه من إعلاء لراية الإسلام وخزي للكافرين والمنافقين وسائر أعداء الدين .

فالسورة الكريمة وما فيها من نصر وفتح وتمكين وتسبيح وتحميد واستغفار كل هذا جاء محصلة لسنوات الكفاح والجهاد ، التي باعت فيها الفئة المؤمنة النفس والنفيس وتركوا الديار والأهل والأحباب ابتغاء مرضات الله، فأتم الله عليهم نوره، ونصرهم وختم لهم بالخيرات، كما جاء في سورة النصر التي تناسبت معانيها مع نهاية العهد النبوي الكريم.

ثانيا : التناسب بين النصر وآخر الآيات نزولًا :

الراجح أن سورة النصر آخر السور نزولًا، ويدل عليه رواية ابن عباس: آخر سورة نزلت من القرآن جميعًا: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ‌ةالفتح)[1]

واختلف العلماء في آخر ما نزل على إطلاقه، فقيل : إن آخر ما نزل آية البقرة قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١ ﴾ البقرة: ٢٨١

وقيل : آية المائدة قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣ ﴾ المائدة: ٣

وقيل : آية البقرة قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ ﴾ البقرة: ٢٧٨

وبعد أن بسط الشيخ الزرقاني خلاف أهل العلم في ذلك قال "والنفس تستريح إلى أن آخر هذه الثلاثة نزولًا هو قول الله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ}

وذلك لأمرين:

أحدهما: ما تحمله هذه الآية في طيَّاتها من الإشارة إلى ختام الوحي والدين، بسبب ما تحثّ عليه من الاستعداد ليوم المعاد، وما تنوّه به من الرجوع إلى الله،

(١) ينظر : مناهل العرفان ج ١ ص ٩٨ . والحديث في المعجم الكبير . الطبراني . ج١٠ ص ٣٠٤ رقم ١٠٧٣٦ مكتبة ابن تيمية . القاهرة ط الثانية . بدون .

واستيفاء الجزاء العادل من غير غبنٍ ولا ظلم ، وذلك كله أنسب بالختام من آيات الأحكام المذكورة في سياقها.

ثانيهما: التنصيص في رواية ابن أبي حاتم السابقة على أن النبي –صلى الله عليه وسلم– عاش بعد نزولها تسع ليالٍ فقط، ولم تظفر الآيات الأخرى بنص مثله..[١]، وهذا الترجيح هو المحقق عند كثير من أهل العلم. [٢]

والتناسب واضح بين سورة النصر وآخر الآيات نزولًا، ففيهما تذكير بالآخرة والاستعداد لها إيذانًا بانتهاء المهمة والتبليغ؛ ولذلك كان من أسماء سورة النصر التوديع ، خاصة بعد فتح مكة وإذعان قبائل العرب للنبي – صلى الله عليه وسلم – ودخولهم في الإسلام أفواجاً، يقول الدكتور محمد حسين الذهبي – مبينًا وجه التناسب بين النصر والآية – : "وانظر بِرَاعَةِ آخَرِ آيَةٍ نَزَلَتْ وَهِيَ قَوْلُهُ: {وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ} وَمَا فِيهَا مِنَ الْإِشْعَارِ بِالْآخِرِيَّةِ الْمُسْتَلْزِمَةِ لِلْوَفَاةِ ، وَكَذَلِكَ آخَرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ وَهِيَ سُورَةُ النَّصْرِ فِيهَا الْإِشْعَارُ بِالْوَفَاةِ كَمَا أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ مِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عُمَرَ سَأَلَهُمْ عَنْ قَوْلِهِ: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} فَقَالُوا: فَتْحُ الْمَدَائِنِ وَالْقُصُورِ قَالَ: مَا تَقُولُ يا بن عَبَّاسٍ قَالَ أَجَلٌ ضُرِبَ لِمُحَمَّدٍ نُعِيَتْ لَهُ نَفْسُهُ"[٣]

---

(١) مناهل العرفان ج ١ ص ٩٧ وما بعدها .

(٢) ينظر : الأساس في التفسير ج١١ ص ٦٧٣٢ ودراسات في علوم القرآن د/ محمد بكر إسماعيل . ص ٣٧ وما بعدها . دار المنار ط الثانية ١٤١٩هـ–١٩٩٩م والمدخل إلى علوم القرآن الكريم د / محمد فاروق النبهان ص ١٠٣ ومابعدها دار عالم القرآن – حلب ط . الأولى، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م .و تاريخ نزول القرآن د/ محمد رأفت سعيد ص ٥٤ دار الوفاء – المنصورة، مصر ط. الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢ م .

(٣) التفسير والمفسرون. د/ محمد السيد حسين الذهبي ج١ص ٤١ مكتبة وهبة .القاهرة . بدون .والحديث في صحيح البخاري ج٤ ص ١٩٠١ رقم ٤٦٨٥ .

وبذلك يتضح تمام التناسب بين سورة النصر وآخر الآيات نزولًا ، وأن السورة والآية يتناسبان مع توقيت النزول الذي يؤذن برحيل النبي – صلى الله عليه وسلم – وتمام الدين وكماله –وسبحان الله – ما أعظم وأجمل كلامه .

ثالثا : التناسب بين النصر والعلق :

العلاقة الجامعة بين النصر والعلق أن النصر آخر السور نزولًا، والعلق أول السور نزولًا ، وقد لفت ذهني إلى بيان وجوه التناسب بينهما بعض كتب التفسير التي رتبت وفق السياق النزولي ، فهي تبدأ بالعلق، وتنتهي بالنصر مثل تفسير بيان المعاني للشيخ/ عبدالقادر ملا حويش، فقد بدأ بالعلق وانتهى بالنصر[١]، والتفسير الحديث للدكتور /دروزة محمد عزت إلا أنه بدأ بالفاتحة، وثنى بالعلق، وانتهى بالنصر [٢] وتفسير معارج التفكر ودقائق التدبر للشيخ / عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني فبدأ بالعلق وانتهى تفسيره إلى سورة البقرة حيث وافاه أجله – رحمه الله –[٣]، وكذا توقفت مع أول دراسة شاملة لبيان التناسب بين سور القرآن الكريم كافة وفق الترتيب النزولي وهو كتاب " حصول المأمول في بيان تناسب السورحسب ترتيب النزول " للشيخ / محمد أحمد رفيق بدأ فيه بالعلق وانتهى بالنصر [٤] وإذا كان البقاعي – رحمه الله – قد رد سورة الناس آخر السور في الترتيب المصحفي إلى سورة الفاتحة أول السور في الترتيب

---

(١) ينظر : بيان المعاني : الشيخ / عبد القادر بن ملّا حويش ج ١ ص ٦٦وج ٦ ص ٥١٧ مطبعة الترقي . دمشق ط الأولى ١٩٦٥م

(٢) ينظر : التفسير الحديث ج١ ص ٢٨٥ وص ٣١٥ وج ٩ ص ٥٧٣.

(٣) ينظر : معارج التفكر ودقائق التدبر عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ج١ ص ٣١ وج١٥ ص ٣٤١ دار القلم – دمشق ط أولى ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م

(٤) ينظر : حصول المأمول في بيان تناسب السور حسب ترتيب النزول . الشيخ / محمد بن أحمد رفيق ص ٣٥ دارالكتب العلمية بيروت ط أولى ٢٠١٩.

المصحفي ، فمن باب أولى أن ترد آخر السور نزولًا إلى أولها نزولًا ، بل إن البحث يرى اعتبار سورة العلق بالنسبة لسور القرآن الكريم وفق الترتيب النزولي كسورة الفاتحة بالنسبة لسور القرآن الكريم وفق الترتيب المصحفي .

خاصة أن البدايات والنهايات تشتمل على المعاني الإجمالية والدلالات العميقة كما أن البلاغة الإعجازية تقتضي حسن البدايات وروعة النهايات ، والنظر في بيان وجوه التناسب بين النصر والعلق يساعد على إبراز الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم وإتمام كافة وجوهها خاصة أن " من ينظر في أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل يعرف الصلة الوثيقة بين آياته كلها في ألفاظها ومعانيها ومراميها، ويتبين له بوضوح أن أول ما نزل مقدمة تقود الباحث إلى ما في هذا الكتاب العزيز من مقاصد وعبر، وأحكام وحكم، وآخرما نزل يوجز كل ما ورد فيه من تلك المقاصد والعِبَر، والأحكام والحكم، فيلتقي الآخر بالأول في نسق واحد، ونسج فريد لا تناقض فيه ولا اختلاف"(١)، وقد اتَّفَق جمهور المحققين على أن أوَّلَ ما نزل من القرآن الكريم بإطلاق أوائل سورة العلق إلى قوله – جل شأنه: "عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"(٢)، فقد روى البخاري في بدء الوحي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنهما، أن جبريل –عليه السلام – أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: " فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي

(١) دراسات في علوم القرآن د / محمد بكر اسما عيل ص ٣٤ دار المنارة . ط . الثانية ١٤١٩هـ-١٩٩٩م .

(٢) ينظر : مصاعد النظر ج ٣ ص ٢١٣ مناهل العرفان ج ١ ص ٩٣و دراسات في علوم القرآن د/ محمدبكر اسماعيل . ص ٣٥

الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ} . (١)

والوجه أن تكون بقية السورة قد نزلت بعد فترة قصيرة من نزول أول السورة حدثت فيها صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفشا فيها خبر بدء الوحي ونزول القرآن، جريًا على أن الأصل في الآيات المتعاقبة في القراءة أن تكون قد تعاقبت في النزول إلا ما ثبت تأخره بدليل بين ، وجريًا على الصحيح الذي لا ينبغي الالتفات إلى خلافه من أن هذه السورة – أي العلق – هي أول سورة نزلت (٢).

فسورة العلق بمطلعها وبقية آياتها أول السور نزولًا، ومقصودها هو "الأمر بعبادة من له الخلق والأمر، شكراً لإحسانه، واجتناباً لكفرانه ، طمعاً في جنانه، وخوفاً من نيرانه، لما ثبت من أنه يدين العباد يوم المعاد"(٣) وهذا المقصود يلتقي مع سورة النصر، فهذه العبادة المأمور بها في مطلع الوحي هي المؤهلة لنصر الله – عزوجل – وبدون هذه العبادة الحقيقية لله – سبحانه – لا نصر ولا فتح ولا تمكين ، فسورة العلق ترسم الطريق الموصل للسعادتين، كما أن سورة النصر خاتمة سعادة الدنيا ومهيئة لسعادة الآخرة .

والجزء الأول من سورة العلق الذي هو مطلع الوحي وبداية الغيث وأول الرحمات يذكر الإنسان بأصله الحيواني ، (العلق)، وهو الدم المتجمد العالق في جدار الرحم، وأن هذا الإنسان يظل يتقلب ويربى على مأدبة القرآن الكريم ، وفي محراب العبادة حتى يستوي إنسانًا ربانيًا، يقرأ، ويتعلم، ويسجد، ويقترب ،

(١) صحيح البخاري ج ١ ص ٧ رقم ٣ .
(٢) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٣٩١.
(٣) مصاعد النظر ج ٣ ص ٢١٣.

ويسبح، ويستغفر ، حتى يصير بعد قطع المراحل إلى الله – عز وجل – أهلًا لتنزل النصر والفتح والتمكين ، فسورة العلق بداية الطريق الذي يسلكه المسلم إلى ربه محصنًا فيه بالقراءة والفهم والتعلم ؛ لأن هذا الدين هو دين العقل والنقل وسورة النصر هي نهاية هذا الطريق .

وفي سورة العلق يتجلى كرم الله – عز وجل – وعظيم عطائه ، فالله عز وجل هو (الأكرم)؛ لأنه هو الذي خلق، وأقرأ، وعلم ، وفهم، فكرمه في (العلق) لا حدود له ، وكذلك يتجلى كرم الله – عز وجل – في سورة (النصر) فقد أتم الله – عز وجل – على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الفضل ، فنصره على عدو ، وفتح له مكة ، وقلوب الناس فكرم الله – عز وجل – تنطق به البدايات وتدل عليه النهايات، ويلتقط الرازي معنى رائعًا لبيان أكرمية الله – عزوجل –، قال :"ويحتمل أن المعنى تجرد لدعوة الخلق، ولا تخف أحدًا، فأنا أكرم من أن آمرك بهذا التكليف الشاق، ثم لا أنصرك"[1]، فسورة النصر ثمرة من كرم الله – عز وجل – على رسوله – صلى الله عليه وسلم – وعلى المسلمين .

ومن وجوه التناسب أن سورة العلق اشتملت على أوامر خاصة بالنبي – صلى الله عليه وسلم – (اقرأ – اسجد – اقترب) وهذه الأوامر التكليفية ظلت مع النبي – صلى الله عليه وسلم – في كل حياته، إلا أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – مهما عبد ربه – فهو يحتاج إلى رحمة ربه وكرمه ، لذلك كانت آخر التكليفات هذه الأوامر (سبح بحمد ربك – استغفره) فالأوامر متناسبة مع توقيتها النزولي، فالنبي – صلى الله عليه وسلم – يستهل الدعوة والتكليف الإلهي بالقراءة، وأي قراءة؟ إنها " قراءة القرآن مفتتحاً باسم ربك، أي: قل باسم الله، ثم

(١) مفاتيح الغيب ج ٣٢ ص ١٧ .

اقرأ " [1]، وقد قرأ النبي – صلى الله عليه وسلم – القرآن حتى كان خلقه القرآن وأمر بالسجود الذي هو أظهر مظاهر العبودية حتى يتحمل القول الثقيل العظيم التبعات ، وعليه أن يقترب بشتى أنواع الطاعات إلى ربه – عزوجل – فهذه الأوامر بمثابة الإعداد الإلهي للنبي – صلى الله عليه وسلم – حتى يقوى على بعات المرحلة ، أما أوامر النصر فتناسب النهايات استعدادًا للقاء الله – عز وجل – والاستجابة لأوامر البدايات (العلق) هي مفتاح النصر والعزة والتمكين، فسورة النصر محصلة طبيعية لهذه الأوامر (اقرأ – اسجد – اقترب)، وإذا أرادت الأمة النصر والعزة والتمكين فعليها أن تقرأ وتسجد وتقترب ، بل إن بداية العلق بداية علمية (قراءة وقلم وعلم) فالأمة مأمورة بالأخذ بأسباب القوة المادية لتحصيل النصر، مع الركون إلى الله والاعتماد عليه ، وبذلك تكون سورة العلق قد أشارت إلى كافة الأسباب المهيئة للنصر .

وسورة النصر أشارت إلى قرب أجل النبي – صلى الله عليه وسلم – كما فهم الصحابة ، وسورة العلق وضعت الإنسان أمام هذه الحقيقة الكبرى قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨ ﴾ العلق: ٨

سورة العلق تحدثت عن صورة من صور الصدام المبكر بين دعوة الحق ورمزا من رموز الباطل، هو أبو جهل الصارخ في عدوانه الفاجر في خصومته قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ ﴾ العلق: ٩ – ١٢

وكان الرد حاسمًا قويًا مبينًا سبيل النصر على هذا الباطل، وهو التبرؤ منه وعدم السير في ركابه والتحصن في العبادة والاقتراب إلى الله – عز وجل –

(١) مفاتيح الغيب ج ٣٢ ص ١٤

بصنوف العبادات والطاعات قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ العلق: ١٥ - ١٩

فهذا ما هدت إليه سورة العلق، وهو عين ما أخبرت به سورة النصر

ويكون قد رجع آخر القرآن نزولًا إلى أوله على أحسن وجه وأجمل، وظهرت وجوه التناسب واضحة جلية، وقد تراءت لي بلا تكلف ولا تعسف، والله هو الهادي والمعين .

وبذلك يكون البحث قد استوفى كافة وجوه التناسب والاعتلاق بين سورة النصر وكافة مستويات الأداء القرآني مما يترجم ويؤكد معنى قولهم عن القرآن الكريم أنه قوي السبك متين الصياغة كامل الانسجام تام التناسب، فهذه الأوصاف – التي لا تفي بجمال القرآن الكريم – أصبح مدلولًا عليها ببيان وجوه التناسب المتناغمة بين آياته وسوره، وذلك أظهر للمعجزة وأمكن لها في النفس والقلب ، فتزيد الذين آمنوا إيمانًا، وترجع بصر الحاقد خاسئًا وهو حسير ، كيف ؟! وقد وجد في ترتيبه المصحفي تناسبًا وتلاقيًا لا يستطيعه إلا العليم الخبير – سبحانه – ووجد في ترتيبه النزولي نفس معاني التناسب حتى كأنه ما نزل إلا لهذه الحادثة، ولا يخدم إلا هذا الزمن فهو الإبداع المعجز في كل أحواله ، وهو الإشراق في كل معانيه وأغراضه ، وهو الهدى والفرقان في كل أوامره وأحكامه، هو الروح لمن أراد الحياة، وكم تحتاج هذه الأمة النصر سورةً ومعنى ! وتتلمس أسباب العزة والتمكين، وهذا ما هدت إليه سورة النصر وما كشف عنه قراءة وتدبر مواقع السورة مصحفيًا ونزوليًا، والله هو الهادي إلى سواء السبيل ، وأسأل الله العفو عن كل زلل وتقصير .

الخاتمـــة

الحمد لله حمدًا يبلغ رضاه، وأشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسوله ومجتباه ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وعلى كل مـــن ســـار على هديه إلى يوم الدين .

وبعـــد:

فهذه سياحة إيمانية في سورة النصر تنسمت فيها عبق الإعجاز القرآني من خلال بيان وجوه التناسب الداخلية والخارجية لهذه السورة الكريمة، وقد خلـــص البحث إلى عدة نتائـــج:

١ – التناسب علم جليل يعين على تدبر القرآن الكريم ، ويزيد من عطاءات المعاني ، ويكشف كثيرًا من الأسرار البلاغية ، ويرد علـــى المستشـــرقين فـــي ادعائهم الباطل بضرورة إعادة ترتيب القرآن الكريم وفق سياق تاريخي .

٢– التناسب المعجز بين النصر والكافرون والمسد يدل دلالة قاطعة علـــى أن ترتيب السور توقيفي، وليس باجتهاد الصحابة .

٣ــ ظهرت وجوه التناسب في سورة النصر على مستوى السياق الداخلي والخارجي، واتسعت دائرة النظر والتدبر لتشمل السياق القرآني العـــام والســـياق النزولي ، وذلك يضيف إلى الإعجاز القرآني إعجازًا فوق إعجازه ، ويكشف عـــن معان لا تظهر إلا بقراءة التناسب الذي بين السور والآيات .

٤– ضرورة النظر في السياق النزولي للقرآن الكريم ؛ لأنه يعطي تصـــورًا واعيًا لحركة الدعوة المحمدية وتطورها ، وتوظيف ذلك يساعد في معالجة الواقع وإصلاحه .

وقــد خلص البحــث إلى عــدة توصـــــيات:

أولاً : دراسة التناسب بين سور القرآن الكريم كافة وفق السياق النزولـــي فلم أقف إلا على دراسة واحدة أشرت إليها سابقًا ، ويظل هذا الموضـــوع بكـــرًا محتاجًا للقلم الواعي والفكر الفطن .

ثانيـاً : دراسة ما قرره الإمام البقاعي من رده آخر تسع سور من القـــرآن الكريم في المصحف على أول تسع سور منه ، وهذا أمر حُق له أن يفرد بدراسة توضح معالمه وتكشف عن جماله وإمتاعه ومدى توفيق البقاعي – رحمه الله – في ذلك .

ثالثا : دراسة التناسب في كتاب الأساس في التفسير للشيخ ســـعيد حـــوى خاصة فيما يتعلق بالتناسب بين سور القرآن الكريم في السياق القرآني العام .

والحمد لله في الأولى والآخرة ،،،

ثبت بأهم المصادر والمراجع

١- إتقان البرهان في علوم القرآن . د/ فضل عباس . دار الفرقان . ط أولى ١٩٩٧م .

٢- الإتقان في علوم القرآن . السيوطي . ت . أ / محمد أبو الفضل إبراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب. ط ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م .

٣- الإتيان والمجيء : فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم . د/ محمود موسى حمدان مكتبة وهبة ط الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٨م

٤ـ الأساس فى التفسير ٠ الشيخ سعيد حوى ٠ دار السلام الطبعة السادسة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م ٠

٥- أسرار ترتيب القرآن . السيوطي . دار الفضيلة . بدون

٦- أسرار التكرار في القرآن . الكرماني . ت . أ/ عبد القادر أحمد عطا . : دار الفضيلة. بدون . م

٧ـ أسماء سور القرآن وفضائلها د/ منيرة الدوسرى٠ دار ابن الجوزى٠ ط. أولى ١٤٢٦هـ٠

٨- الأسماء والصفات ، الإمام البيهقى . دار الكتب العلمية ـ بيروت . بدون .

٩- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية . مصطفى صادق الرافعي . دار الكتاب العربي بيروت ط ٩. ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م

١٠ - إعراب القرآن وبيانه . محي الدين الدرويش دار الإرشاد ـ دمشق . بدون.

١١ـ الإمام البقاعى ومنهاجه فى تأويل بلاغة القرآن ٠ د/ محمود توفيق سعد٠ مكتبة وهبة ٠ ط أولى ١٤٢٤هـ ٠

١٢ــ الإيضاح الخطيب القزوينى ٠ ت٠د/ محمد عبد المنعم خفاجى ٠دار الجيل . بيروت. بدون

١٣ ــ البحر المحيط . أبوحيان . دار الفكر – بيروت ط. ١٤٢٠ هـ.

١٤- البداية والنهاية . ابن كثير . دار إحياء التراث العربي . ط الاولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

١٥- البرهان فى تناسب سور القرآن ابن الزبير الغرناطي ص ١٩٤ ت. أ/ محمد شعباني .وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ــ المغرب . ط أولى١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م .

١٦ــ البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان . الكرماني . ت .الشيخ /عبد القادر أحمد عطا . دار الفضيلة . بدون.

١٧ – البرهان في علوم القرآن . الزركشي . ت . أ /محمد أبو الفضل إبراهيم . دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه .ط الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧ م .

١٨- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز الفيروزآبادي . ت . أ/ محمد علي النجار وأ/ عبد العليم الطحاوي : المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ط ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

١٩- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة . الشيخ / عبد المتعال الصعيدي . مكتبة الآداب . طبعة ١٩٩٩م .

٢٠ – البيان في عدّ آي القرآن أبو عمرو الداني وما بعدها ت . د/ غانم قدوري الحمد مركز المخطوطات والتراث – الكويت الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م

٢١ – بيان المعاني : الشيخ / عبد القادر بن ملّا حويش ج ١ ص ٥١٧ مطبعة الترقي . دمشق ط الأولى ١٩٦٥م

٢٢- تاج العروس من جواهر القاموس . الزَّبيدي . دار الهداية . بدون.
٢٣ - تاريخ نزول القرآن د/ محمد رأفت سعيد . دار الوفاء . المنصورة، مصر ط. الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م .
٢٤ـ التحرير والتنوير . الطاهر ابن عاشور . الدار التونسية للطباعة والنشر . ط . ١٩٨٤م
٢٥- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي. المباركفورى دار الكتب العلمية – بيروت .بدون .
٢٦- تفسير أسرار القرآن . الشيخ / عبدالعزيز جاويش . مطبعة الهداية الإسلامية . الآستانة . ط ١٣٣١هـ .
٢٧- التفسير الحديث . د/ دروزة محمد عزت . دار إحياء الكتب العربية – القاهرة . ط . ١٣٨٣ هـ.
٢٨ - تفسير القرآن العظيم. ابن كثير . دار الكتب العلمية – بيروت ط. الأولى - ١٤١٩ هـ.
٢٩- التفسير والمفسرون. د/ محمد السيد حسين الذهبي مكتبة وهبة .القاهرة . بدون .
٣٠ـ تناسق الدرر فى تناسب السور ٠ السيوطى ٠ ت٠د/ عبد القادر أحمد عطا دار الكتب العلمية ٠ بدون ٠
٣١ ـ جامع البيان في تأويل القرآن أبو جعفر الطبري ج ت.الشيخ / أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة ط الأولى. ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .
٣٢ ـ الجامع الصحيح ٠ الترمذى ٠ ت ٠أ/ أحمد شاكر ٠ دار الحديث القاهرة٠بدون .

٣٣ـ الجامع لأحكام القرآن . القرطبي . ت .أ /أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش دار الكتب المصرية – القاهرة ط الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

٣٤- جمال القراء وكمال الإقراء . علم الدين السخاوي . ت . د/ عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي . مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت ط الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩

٣٥- جمع القرآن . دراسة تحليلية لمروياته . د/ أكرم الديلمي . وما بعدها . دار الكتب العلمية . بيروت . بدون .

٣٦ـ حصول المأمول في بيان تناسب السور حسب ترتيب النزول . الشيخ / محمد بن أحمد رفيق. دارالكتب العلمية بيروت ط أولى .٢٠١٩

٣٧- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية . د/ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني .مكتبة وهبة ط الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

٣٨- دراسات في علوم القرآن: محمد بكر إسماعيل. دار المنار ط. الثانية ١٤١٩هـ-١٩٩٩م .

٣٩ـ دراسات منهجية فى علم البديع ٠ د/ الشحات أبو ستيت ٠ دار خفاجى للطباعة والنشر. ط أولى ١٩٩٤م ٠

٤٠- درة التنزيل وغرة التأويل . الخطيب الإسكافي ت . د/ محمد مصطفى آيدين نشر : جامعة أم القرى ط الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

٤١ـ دلائل الإعجاز . عبدالقاهر الجرجاني .ت. الشيخ / محمودشاكر . مطبعة المدني بالقاهرة ط الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٤٢-ديوان أمية بن أبي الصلت ص ١٩ . ت .د/ سجيع جميل الجبيلي . دار صادر بيروت ط أولى ١٩٩٨م .

٤٣- ديوان النابغة الذبياني ص ٢٨ ت.ا/عباس عبدالساتر . دار الكتب العلمية ط ٣ ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٤٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. الألوسي ت .أ/على عبد البارى عطية دار الكتب العلمية ـ بيروت ط ١٤١٥ هـ.

٤٥- زاد المعاد في خير العباد . ابن القيم . مؤسسة الرسالة . بيروت ط. السابعة والعشرون ١٤١٥هـ.

٤٦ـ زهرة التفاسير٠ الشيخ /أحمد أبو زهرة٠ دار الفكر العربى ٠ بدون ٠

٤٧- سنن الترمذي ٠ ت . الشيخ / أحمد شاكر وآخرين . مطبعة الحلبي . ط الثانية .١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م .

٤٨- شرح الرضى . د/ يوسف عمر .منشورات جامعة قابوس بن غازي . ط الثانية ١٩٩٨م.

٤٩- شعب الإيمان أبو بكر البيهقي . ت . د/ عبد العلي عبد الحميد حامد .مكتبة الرشد .الرياض . ط الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م .

٥٠- صحيح البخاري. دار الشعب – القاهرة ط الأولى ، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.

٥١- صحيح ابن خزيمة . ت . د/ محمد مصطفى الأعظمي . المكتب الإسلامي ط الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣

٥٢- صحيح مسلم . ت .أ/ محمد فؤاد عبد الباقي . دار إحياء التراث العربي – بيروت . بدون .

٥٣ ـ العزف على أنوار الذكر٠ د/ محمود توفيق سعد ٠ مكتبة وهبة ط. أولى ١٤٢٤هـ٠

٥٤- علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم . دراسة بلاغية نظرية تطبيقية . د / إبراهيم الهدهد . مكتبة الإيمان . القاهرة . ط الأولى ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
٥٥ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري. ابن حجرالعسقلاني دار المعرفة – بيروت ط . ١٣٧٩م .
٥٦- الفروق اللغوية . أبوهلال العسكري دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.بدون .
٥٧ـ قاموس القرآن "إصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم " الفقيه المفسر/ الحسين بن محمد الدامغانى ٠ت ٠أ/ عبد العزيز سيد الأهل ٠ دار العلم للملايين ٠بيروت ٠ط الثالثة ١٩٨٠م
٥٨- القرآن نزوله ، تدوينه ، ترجمته وتأسيره ، لبلاشير ، ترجمه / رضا سعادة دار الكتاب اللبنانى ٠ بيروت ط أولى ١٩٧٤م ٠
٥٩- الكشاف.الزمخشري. دار الكتاب العربي – بيروت ط الثالثة – ١٤٠٧ هـ.
٦٠ـ لسان العرب لابن منظور ٠ ط دار صادر بيروت ٠ بدون ٠
٦١ ـ المجتمع المثالى كما تنظمه سورة النساء أ/ محمد محمد المدني ٠ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٠ بدون ٠
٦٢ ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين . ابن القيم ت . أ/محمد المعتصم بالله البغدادي دار الكتاب العربي – بيروت ط الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م
٦٣- المدخل إلى علوم القرآن الكريم د / محمد فاروق النبهان. دار عالم القرآن – حلب ط . الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .

٦٤ـ مراصد المطالع فى تناسق المقاطع والمطالع ٠ السيوطى . ت. د/عبد المحسن العسكر ٠ مكتبة دار المنهاج ٠الرياض ط أولى ١٤٢٦هـ ٠
٦٥ـ المستدرك على الصحيحين٠الحاكم النيسابورى ت٠د/مصطفى عبد القادر عطا٠ دار الكتب العلمية ٠ بيروت ط أولى ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م
٦٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل ت . الشيخ / شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون. مؤسسة الرسالة. ط . الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م
٦٧- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور .البقاعي . ت . د/عبدالسميع حسنين . مكتبة المعارف – الرياض ط الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.
٦٨- المصباح المنير في المعاني والبيان والبديع لبدر الدين بن مالك .. ت . د/حسنى عبد الجليل يوسف . مكتبة الآداب . القاهرة . بدون
٦٩- معارج التفكر ودقائق التدبر. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني دار القلم – دمشق ط . أولى ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م
٧٠- المعجزة الكبرى القرآن . د/ محمد أبوزهرة . دار الفكر العربي . بدون .
٧١- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم أ/ محمد فؤاد عبد الباقى ٠
٧٢- معجم مقاييس اللغة . ابن فارس ت. أ / عبد السلام محمد هارون . دار الفكر ط . ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٧٣- مفاتيح الغيب . الرازي . دار الفكر العربي . بيروت . ط ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م
٧٤ـ مفتاح العلوم. للإمام أبي يعقوب يوسف السكاكي . ت . أ /نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية . بيروت . ط الثانية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
٧٥- المفردات في غريب القرآن . الراغب الأصفهاني ت . أ/ صفوان عدنان الداودي . دار القلم، الدار الشامية – دمشق . بيروت . ط الأولى -

٧٦- المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ، أبو حامد الغزالى ، ت٠ د/ محمد عثمان الخشت ، القاهرة ط ١٩٨٥م
٧٧- مناهل العرفان في علوم القرآن .الشيخ / محمد عبد العظيم الزُّرْقاني: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه . ط الطبعة الثالثة
٧٨- منهاج البلغاء وسراج الادباء حازم القرطاجني ت . د/ الحبيب ابن الخوجة دار الغرب الإسلامي، بيروت.ط . الثالثة - ١٩٨٦م
٧٩- النبأ العظيم . نظرات جديدة في القرآن . د/ محمد عبدالله دراز . دار الثقافة الدوحة . ط ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م.
٨٠- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم . الشيخ / محمد الغزالي . ص ١١ دار الشروق ط الرابعة ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م
٨١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور . البقاعي . دار الكتاب الإسلامي . ط . ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م .